

الأشارة

إلى أدب الوزارة

للووزير المؤرخ
لسان الدين ابن الخطيب السلماني

دراسة وتحقيق
الدكتور محمد كمال سبانه

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس: ٥٢٦٢٧٧

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر ت ٥٩٢٣٦٢٠٠ - فاكس ٥٩٣٦٢٧٧٠
ص ب ٢١ توزيع الظاهر - القاهرة

٢٠٠٢/١٣٦٢٩	رقم الابداع
977 - 341 - 105 - 2	I.S.B.N الترقيم الدولي

مقدمة المحقق

لقد تناول بعض المؤرخين والباحثين من العرب موضوع "الوزارة" كمناصب سياسية تضمنه نظام الإدارة في الاسلام، وافردوا لها مؤلفات مستقلة، تضمنت ابحاثاً حولها ودراسات، فمن هؤلاء الجهشياري أبو عبد الله محمد بن عبدوس، المتوفى سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م في مؤلفه "كتاب الوزراء والكتاب"^(١)، وهلال الصابى أبو الحسن بن المحسن بن أبى إسحاق إبراهيم الكتاب، المتوفى سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م في كتابه "تحفة الأمراء، فى تاريخ الوزراء"^(٢)، وابن منجب أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم ابن على، المتوفى سنه ٥٤٢هـ / ١١٤٨م، فى مؤلفه "الإشارة إلى من نال الوزارة"^(٣)، ومن هؤلاء أيضاً عمارة اليمى أبو الحسن نجم الدين المتوفى سنه ٥٦٩هـ / ١١٧٤م فى مؤلفه "كتاب النكت العصرية، فى أخبار الوزراء المصرية"^(٤) وغيرهم من الكتاب.

كما تحدث عن فن "السياسة" عامة كثيرون من القدامى والمحدثين كتخطيط للدولة وتنظيم لأموها فى شتى نواحيها، فمن هؤلاء ابن قتيبة أبو محمد بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦هـ / ٨٨٩م، فى كتابه "الإمامة والسياسة"^(٥) وابن تيمية

(١) نشرة الاساتذة - مصطفى السقا، وإبراهيم الاياري، وعبـد الحفيظ شليبي (القاهرة ١٩٣٨م).

(٢) طبعة هـ . ف امدروز، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات.

(٣) طبع القاهرة ١٩٢٤م.

(٤) نشرة هارتوج ديرانبور (باريس ١٨٩٧م).

(٥) وهو جزعان، وينسب أيضاً إلى كاتب أندلسى، وقد طبع بالقاهرة عام ١٣٢٢هـ.

أبو العباس أحمد المتوفى سنة ٦٦١هـ فى مؤلفه "السياسة الشرعية، فى إصلاح
الراعى والرعية"^(١)

ويدل لسان الدين ابن الخطيب - بعد هؤلاء - بدلائه فى هذا الشأن وهو الذى
تمرس بأساليب الحكم، وتقلب فى دواوين السلاطين، فخبير عن قرب فى السياسة
والسياسة، حيث تولى منصب الوزارة فى بلاط السلطان يوسف الأول بن إسماعيل
النصرى (٧٣٣هـ - ٧٥٥هـ / ١٣٣٣م - ١٣٥٤م) كما وزر لابنه من بعده الغنى
بالله محمد الخامس (٧٥٥هـ - ٧٦٠هـ / ١٣٢٤م - ١٣٥٩م). وهى فترات خصبة من
تاريخ الإسلام بالأندلس، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، فعالج وزيرنا الأمور،
بحيث ترك بصماته واضحة فى هذا الميدان على الصعيدين الداخلى والخارجى،
حين كانت دولة غرناطة محصورة فى الجزء الجنوبى من الأندلس، تتناولا ايدى
الفتن، داخل المملكة، ويسيل لها لعاب مملكتى قشتالة وأراجون المتحدتين،
ليتوجا حروب الاسترداد باسقاط غرناطة فى النهاية. فلا عجب أن لعب ابن
الخطيب دوره كساسة فى مساندة الملكة النصرىة، والعمل جهده للحفاظ على
كيانها. فكان جديراً بان يتصدى للحديث عن هذا المنصب الخطير بدوره.

وهكذا نرى لسان الدين يثرى المعرفة الإنسانية فى هذا الجانب السياسى، إذ
يكتب عن "الوزارة" هذه الرسالة التى نقوم اليوم بتحقيقها: هكذا فى هذا الإطار
لاول مرة، وهى:

(١) تحقيق الأستاذين: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور (القاهرة ١٩٧٠م).

والكتاب منهج وهدف، قصد به المؤلف إصلاح حال مجتمعه من الفساد والانحلال أثر
الحروب الصليبية، فقد رأى ابن تيمية فساد الولاية واختلافهم، وسوء اختيارهم لعمالهم، كما
قدم فى الكتاب نموذجاً للحكم فى الإسلام، متأسيماً بأنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به
أمر أولها، وقد عنى فى هذا المجال بالقواعد العامة، أو كما يقول: " وإنما الغرض ذكر الجمل
الجامعة، وهو فى ذلك يحتكم إلى الكتاب والسنة وأقوال الصحابة، ولا يلتزم بمذهب معين"
راجع المقدمة لهذا الكتاب.

”الإشارة إلى أدب الوزارة“

تلك التي صاغها في صورة من خبير انفق جل حياته في هذا الميدان. لقد تحدث عن قدر رتبة الوزارة في الأقدار، وبعض شروط الاختيار وعقد لذلك ثلاثة فصول، وأوصى في هذا بأنه لا بد من ”أركان“ فصلها في ستة، ففي الأول: ساق لنا ما يستشعره الوزير بينه وبين نفسه، وفي الثاني: ذكر ما يستشعره الوزير مع الملك، وفي الثالث: شرح ما ينبغي أن يحذره الوزير في الأمور حيال الملك، وفي الرابع: صنف أخلاق الملوك ”للسير بمقتضاها والسلوك“، وفي الخامس تحدث عن ”سيرة الوزير مع من يتطلع إلى هضبته، ويحسده على رتبته“ أما الركن السادس والأخير: فقد خصصه للحديث ”فيما تناس به الخاصة والبطانة، وذوو الدالة والمكانة“ واعقب هذا بتوجيه غاية في الأهمية عندما خاطب الوزير بقوله: ”لتختم يومك بالطهارة والعفة، والحلم والرافة، واعتدال الكفة، وليهون عليك النصب والوصب، والعمر المعتصب، أنك مهتد بهدى ربك الذي يركع، وينجح مسعاك، ويثبتك على ما إليه دعاك“.

والرسالة في الجملة حصيلة الخبرة الثقافية ثم الخبرة السياسية، فجاء مؤلفه هذا لم يترك شاردة أو واردة إلا أتى عليها نصاً وتقييداً، ضارباً للأمثلة هنا وهناك، معزراً كل هذا بالأدلة القاطعة، والحجج الدامغة.

أما رسالته في ”السياسة“ فقد صاغها على هيئة مقامة، أبطال الرواية فيها من رجالات التاريخ ممن طارت لهم شهرة مثل هارون الرشيد لإعداد هذه المقامة، وقد تحدث من خلال القصة عن دعائم سياسة الدولة، وركائز الملك، فذكر الوزير، ثم ”الجند“ ثم ”العمال“ ثم ”الخدم“ ثم ”الحرم“ أخيراً^(١).

(١) تجدر الإشارة إلى أن رسالة ”السياسة“ هذه أوردها الأستاذ محمد عبد الله عنان ضمن مؤلفه عن ابن الخطيب، بعد أن رجع إلى مخطوطة واحدة من الريمانجة (الاسكوريال ١٨٢٥) وقد رجعنا بدورنا إلى أكثر من مخطوطة كما سيلمس الباحث.

راجع: عنان في ”لسان الدين ابن الخطيب“ من ٣٧٠ - ٣٨٨ القاهرة ١٩٦٨م لتحقيق

ودراسة الرسالة.

وفى نهاية المطاف نرى المؤلف يسدى النصح خالصاً للملك، وذلك فيما ينبغي له ان يتحلى به من صفات تجعله أهلاً لما تقلد.

حقاً، إن حياة ابن الخطيب على امتدادها قوة بالغة العطاء، فقد منح المعرفة الإنسانية الشيء الكثير، وبذل من نفسه وعلمه لوطنه الأندلس والمغرب فى مجال السياسة والثقافة، فضلاً عن قصة حياته نفسها التى تمثل مرحلة هامة من مراحل الصراع على السلطة، والذى كان طابع التاريخ الإسلامى فى العصور الوسطى.

ولقد كتب عن ابن الخطيب الكثير من الدراسات التى تحلل أعماله السياسية والثقافية، وتدرس ظروف حياته، وأثر ذلك على إنتاجه، وكل هذه الأبحاث فى مجموعها تعطينا صورة متكاملة عن المؤلف وعصره.

هذا، ولقد أورد المؤلف رسالتيه "الإشارة إلى أدب الوزارة" و"مقامة السياسة" ضمن مؤلفه الكبير "ريحانة الكتاب، ونجمة المنتاب" والذى ما زال فى مجموعته مخطوطاً لم يحقق بعد ككل، وقد اقتضت طبيعة تحقيق هاتين الرسالتين أن نرجع إلى "الريحانة" فى كافة ميطان وجودها جهد الاستطاعة، وذلك فى كل من المغرب وتونس والجزائر والقاهرة وأسبانيا وروما على النحو التالى:

١ - نسختان بدار الكتب القاهرة.

الأولى: يوجد منها الجزء الأول وبعض الجزء الأخير فى مجلدين، وبخط مغربى، فى ثناياها ثقبون ونقص واضطراب. وهذان الجزءان مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس، ويقعان فى ٣٠٩ لوحة، مسجلين برقم ١٩٨٧٥.ز.

الثانية: بها نقص يسير من الخطبة، أولها بعد الديباجة: "وسميته لتنوع بساتيئه المنشوقة وتعدد أفانيهه المعشوقة، بريحانه الكتاب، ونجمة المنتاب". الخ، وتقع هذه النسخة فى مجلدين كتباً بخط النسخ، وقد نقلنا عن الجزأين المخطوبين المقيدين بدار

الكتب المصرية برقم ٥٢٤ أ د ب س، ويقعان في ٤٦٠ - ٦٥٠ صفحة، مسطرتها ٢١ سطرًا، وقد سجلا تحت رقم ٣٤٥٩ ز وقد اتخذنا لهذه النسخة في التحقيق الرمز "د".

٢ - نسخه الاسكوريال بمدريد

وهي مسجلة برقم ١٧٧٧ من فهرس الغزيرى، وهي نسخة جيدة للغاية، بخط أندلسى باهت، وتقع فى ٢٨١ لوحة كبيرة، أعنى ٥٠٢ صفحة ٢٧ سطرًا، وفى كل سطر ١٢ كلمة فى المعدل العام. وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة أنها كتبت سنة ٨٨٨هـ وقد رمزنا إليها خلال البحث بالرمز "أ".

٣ - جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما، مكتوبة بخط مغربى، وهي عبارة عن السفر الثالث من "الريحانة" وعدد لوحاتها ١١٩ لوحة كبيرة. مسجلة برقم ٢٥٢.

٤ - قطعة مخطوطة أخرى فى مكتبة الجزائر الوطنية من "الريحانة" تشتمل على ١٨١ لوحة مزدوجة من القطع الكبير، مكتوبة بأكثر من خط معظمه قديم، والبعض منها - ولاسيما الوسط - قد اكمل مؤخرًا، أو بتاريخ احدث، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثانى والاخير من "الريحانة"، حيث تبدأ بالفصل الذى يحمل عنوان "جمهور الأغراض السلطانيات"، ويغلب على الظن أن هذه النسخة هي أقدم جزء من المخطوط رقم ٢٠١٠. وقد احتوى هذا الجزء - ضمن ما احتوى - كتاب "الإشارة إلى أدب الوزارة، ومقامة السياسة" موضوع الحديث، وقد رمزنا إليها بالرمز "ج".

٥ - وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من "ريحانة الكتاب".

الأولى: تضم السفين الرابع والخامس، وتقع فى ٩٩ لوحة مزدوجة من القطع الكبير، فى كل نسخة منها ٢٧ سطرًا، وقد كتبت بخط مغربى، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها، وهو يوم الأحد قبل الزوال عام تسعة عشر ومائة وألف (لم يذكر تاريخ اليوم أو الشهر) وهي برقم ٤٠ - ٥٦٥، ورمزها "س" فى تحقيقنا.

أما القطعة الثانية: فهي برقم ٣٠١١، وتنطبق عليها نفس أوصاف الأولى ولا سيما الخط.

٦ - أما فى الخزنة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظات) فتوجد عدة نسخ من "الريحانة"، أظهرها وأشهرها النسخة الكتانية المسجلة برقم ٣٣١ك، وهى عبارة عن مجلد ضخيم يتألف من ٦٠٩ صفحة من القطع الكبير، وفى كل صفحة ٢٥ سطرا، قد كتبت بخط مغربى واضح، وبها زيادات حديثة، أغلب الظن أنها ليست من إنشاء ابن الخطيب ولا سيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى أمية والخلفاء من بنى العباس، وهو غفل من تاريخ كتابته، أما النسخة الأساسية للريحانة فتقع فى ٥٩٩ صفحة، وقد رمزنا إليها بالرمز "ك". وتوجد بنفس هذه الخزنة - غير التى ذكرنا - سبع نسخ من "الريحانة" قد اشتمل معظمها على "الإشارة" و"مقامة السياسة" وهى كما نذكر:

أولها: نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط، ويشتمل أولها على ٢٢٢ لوحة، مكتوبة بخط مغربى واضح، والمجلد الآخر عبارة عن ٢١٥ لوحة من نفس الحجم، وقد كتبت بنفس الخط المغربى الواضح.. وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم ٢١٩٥ بالمكتبة الملكية، وقد رمزنا إليها بالرمز "ل" أثناء التحقيق.

وثانيها: عبارة عن النصف الثانى من "الريحانة" وهى نسخة تحتوى لوحاتها ١٤٥ لوحة من الحجم الصغير، ورقم التسجيل ٦٠٠.

وثالثها: عبارة عن النصف الثانى من "الريحانة" وهى نسخة تحتوى على الأسفار الرابع والخامس والسادس، وتقع جميعها فى ١٨٦ لوحة.

ورابعها: نسخة ذات أوراق بالية وقديمة تشتمل على ٤٠ لوحة كبيرة قد كتب على الصفحة الأولى منها "السفر الثالث من ريحانة الكتاب"، وفى نهاية اللوحة الأخيرة عبارة "كامل السفر الخامس" ورقم تسجيلها ٦٤٠٠.

أما النسخة التى اعتمدها فى التحقيق لكل من "الإشارة إلى أدب الوزارة" و"مقامة السياسية" فهى مخطوط الاسكوريال (الغزيرى ١٧٧٧) حيث تقع "الإشارة" فى ١٩ لوحة و"السياسة" فى ١٣ لوحة.

ولقد رأيت تعميمها للفائدة، وشمولاً للبحث والدراسة، اُخْتُط في هذا التحقيق النحو
التالي:

الباب الأول: ويختص بترجمة للمؤلف.

الباب الثاني: عرض لمنصب "الوزارة" علي مر التاريخ الإسلامي

الباب الثالث: التحقيق لمخطوط: "الإشارة إلى أدب الوزارة".

الباب الرابع: التحقيق لمخطوط: "مقامة السياسة".

وجدير بالذكر في النهاية أن أنوه بالفضل - كمادتي - لكل من تقدمني في هذا الميدان
لا سيما في حقل التراث الأندلسي المغربي، آملاً أن أكون بهذه الدراسة والتحقيق قد
وضعت أمام الباحثين ما قد يحتاجون إليه في هذا المجال من تراثنا.

وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وهو ولي التوفيق

٢٢ من ذي القعدة ١٤٠٠ هـ - أول أكتوبر ١٩٨٠م.

المحقق

دكتور

محمد كمال شبانة.

الـؤلف

لسان الدين ابن الخطيب

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السلماني. نسبة إلى سلمان، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية، كانت أسرة ابن الخطيب إحدى هذه القبائل، ومن اليمن وفدت الأسرة إلى الأندلس، حيث أتخذت قرطبة مقراً لها.

ثم هاجرت الأسرة إلى طليطلة - كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه - عام ٣٠٢هـ، وهو العام الذي حدثت فيه ثورة أهل الريض بقرطبة، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام^(١)، حيث حرض الفقهاء أهل الريض ضد الأمير، ولكن الحكم قضى على الثورة في الموقعة المشهورة (موقعة الريض)، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب التي قصدت طليطلة، وبقيت بها قرابة قرن ونصف، ولما أحست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة - حيث أصبحت هدفاً للأسبان في أواسط القرن الخامس الهجري (أوائل القرن الثالث عشر الميلادي) - بادرت بالفرج عنها إلى مدينة (لوشة) حيث ولد ابن الخطيب.

ولد ابن الخطيب بمدينة لوشة في ٢٥ رجب ٧١٣هـ / ١٦ نوفمبر ١٣١٣م وتقع هذه المدينة على بعد ٥٥ كلم غرب غرناطة، وهي إحدى المدن الأندلسية الشهيرة أيام الحكم الإسلامي، وقد استولى عليها الأسبان خلال حروب الاسترداد، قبل سقوط غرناطة بقليل ٨٩١هـ / ١٣٨٦م، وهي الآن مدينة إسبانية متوسطة المساحة يقع بعض عمرانها بأعلا ربوة صخرية والبعض الآخر من المباني في منخفض الوادي، وعلى مقربة منها بسيف فسيح من المزارع والحدائق، يمتد حتى سفح الجبال القريبة منها، ويخترق لوشة نهر شنييل من الشمال، ويقدر عدد سكانها حالياً بمائة وخمسين ألف نسمة تقريباً، بينما كان

(١) هو أحد ملوك بني أمية بالأندلس، تولى الحكم عام ١٨٠هـ وتوفي عام ٢٠٦هـ.

سكانها على عهد ابن الخطيب - يجاوز هذا العدد بكثير كما تقول الرواية الإسلامية على الخصوص.

هذا ولم يبق الآن من الآثار الإسلامية بهذه المدينة سوى أطلال القسبة أو القلعة، وبقايا بناء فى باطنها، يرجح بعض المؤرخين المعاصرين^(١) أنها كانت مسجداً، وهى عبارة عن ثلاثة عقود على صفين، ولكن لا تشتمل على أية نقوش أو كتابات، ويسمى هذا المكان بالجيب ALGEB وتقع الكاتدرائية على مقربة من القسبة وفوق المسجد القديم حسبما يرى هؤلاء المؤرخون، حيث يستندون إلى التقليد العام للسياسة الأسبانية، من أنها كانت تقيم الكنيسة العظمى فى كل بلد مفتوح على أنقاض المسجد الجامع، ومن المعروف أن المسجد الجامع كان يقع وسط المدينة دائماً، ويدعم هذا الزعم أن الكاتدرائية تحتل اليوم وسط المدينة.

بيد أنه - حتى هذه اللحظة - لم يعثر عالم - آثار أو مؤرخ على أى اثر يتعلق بحياة الوزير ابن الخطيب فى هذه المدينة (لوشة)، أو حتى موقع بيته، لطول العهد ومرور السنين الطوال.

تربى ابن الخطيب فى أسرة عرفت بالأصالة والعلم والجاه، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه، حيث ترجم لأبيه فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد عام ٦٨٣هـ / ١٢٧٢م، واستقر حيناً فى غرناطة، ثم عاد إلى لوشة مقر الأسرة، ثم رجع إلى غرناطة حيث ألتحق بخدمة السلطان أبى الوليد إسماعيل ملك غرناطة (٧١٣هـ / ١٣١٤م).

ولما توفى هذا السلطان، وخلفه ابنه السلطان (أبو عبد الله محمد الرابع)، ألتحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضاً، ثم بأخيه السلطان أبى الحجاج

(١) هو المؤرخ العربى الأستاذ عبد الله عنان، فى كتابه (الآثار الباقية فى الأندلس).

يوسف (٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، حيث عاصر الكاتب الكبير والرئيس العظيم أبا الحسن على ابن الجياب، والذي منح من جانبه لقب الوزارة، وأخيراً سقط عبد الله مع والده الأكبر - أخی لسان الدين - قتيلاً في معركة طريف الشهيرة^(١)، والتي تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب، وسقوط كل من طريف والجزيرة الخضراء، وذلك في أكتوبر ١٣٤٠م - جمادى الأولى ٧٤١هـ.

نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة، وتلقى بها دراسته^(٢) وكانت غرناطة وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر، مثل أبي عبد الله الفخار الألبيري شيخ النجاة في عصره، وأبي عبد الله بن مرزوق فقيه المغرب الكبير، والقاضي أبي البركات ابن الحاج البليقي، ودرس الأدب والشعر على الوزير أبي عبد الله بن الحكيم اللخمي، وعلى الرئيس أبي الحسن على بن الجياب، وغير هؤلاء، كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ يحيى بن هذيل، فلا نبالغ أذن إذا قلنا أن غرناطة في ذلك الوقت كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والإسلامية في هذا القطر الغربي من العالم الإسلامي، وكان هذا من حسن حظ ابن الخطيب إلى حد بعيد.

لقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده. فمنذ عجب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول إلى مركز أبيه. فلما توفى الوالد دعى للخدمة مكانه وكان حينئذ في الثامنة والعشرين من عمره، حيث تولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبي الحسن ابن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج يوسف الأول

(١) وتسمى بالأسبانية La Batalla del salado باسم النهر الذي وقعت على ضفافه، والذي يصب في المحيط شمالي طريف.

(٢) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢.

النصرى وكاتبه، ثم خلف أستاذه فى الوزارة^(١) ونقلد الإنشاء للسلطان أبى الحجاج يوسف، وكان قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً بفضل أسناده الراحل وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية، والتي حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب والتي نعتنها المؤرخ ابن خلدون "بالغرائب"، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير فى كتابه (ريحانة الكتاب ونجحة للمنتاب)، كما أورد المقرئ عدداً منها فى مؤلفه "نفع الطيب"^(٢).

هذا، وقد كسب ابن الخطيب ثقة مخدومه السلطان، حيث قربه من مجلسه، وخلع عليه الجم من النعم، كما أصبح أثيراً لديه، مودعاً آياه أمانة سره وكتابته، وذلك لروعة المكاتبات السلطانية التى دجها له من جهة ومن جهة أخرى لنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب، وتحدث ابن الخطيب عن هذه المكانة فى كتابه الإحاطة بقوله: "فقلدنى السلطان سره ولما يستكمل الشباب، ويجتمع السن، معززة بالقيادة، ورسم الوزارة، واستعملنى فى السفارة إلى الملوك، واستتابنى بدار ملكه، ورمى إلى بخاتمه وسيفه، واثنمنى على صوان، حضرته، وبيت ماله وسجوف حرمه، ومعقل امتناعه"، فقد بعثه السلطان سفيراً إلى أبى الحسن المرينى ملك المغرب عام ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م.

ولما توفى السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلاً فى عيد الفطر ٧٥٥هـ / ١٩ أكتوبر ١٣٥٤م، خلفه فى الملك ولده السلطان "محمد الغنى بالله". واستمر ابن الخطيب فى معاونة الوزير "أبى النعيم رضوان" على خدمة السلطان الجديد، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى، ثم قام بسفارة إلى السلطان أبى عنان المرينى عام ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م، ولقد نجح ابن الخطيب فى مهمته هذه نجاحاً عظيماً، وفيها مدح أبا عنان بالقصيدة التى مطلعها:

(١) توفى ابن الجياب فى رباء الطاعون الجارف شوال ٧٤٩هـ - يناير ١٣٤٩م، على نحو ما قدمنا فى ترجمته.

(٢) المقرئ - نفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٠، وما بعدها وج ٤ فى عدة مواضع منه.

خليفة الله ساعد القدر علاك ما لاح فى الدجى قمر
 ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
 وجهك فى الفائبات بدر دجى لنا، وفى المحل كفك المطر
 والناس طرا بأرض أندلس لولاك ما وطنوا ولا عمروا
 وغاية الأمر أنه وطن فى غير عليك ما له وطن

فاستجاب ملك المغرب للمطالب التي حملها ابن الخطيب لصالح ملك
 غرناطة، وفى مقدمتها العون الحربى لمقاومة اطماع ملك قشتالة.

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغنى بالله، اذ منحه ثقة الملك
 كأبيه من قبل، وخلع عليه لقب (ذى الوزارتين) لجمعه بين الكتابة والوزارة،
 وتحدث ابن الخطيب عن هذه الفترة من خدمته فى الإحاطة، فيقول: "ولما هلك
 السلطان (يعنى أبا الحجاج) ضاعف ولده خطوتى، وأعلى مجلسى، وقصر
 المشورة على نصحى، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقتدى فى أخوه المتغلب على
 الأمر، فسجل الاختصاص، وعقد القلادة، ثم حمله أهل الشحنة من اعوان
 ثورته على القبض على، فكان ذلك" (١).

أما الكائنة التي وردت على لسانه فيعنى بها الثورة التي اندلعت فى
 غرناطة عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، وانتهت بان فقد السلطان الغنى بالله ملكه،
 واستولى أخوه الأمير إسماعيل على العرش، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل
 الوزير ابى النعيم رضوان، ثم فرار الغنى بالله إلى وادى آش، وعليه فأصبح ابن
 الخطيب لا يملك من الأمر شيئاً، غير أنه حاول لأن يستميل السلطان الجديد،
 فقبله فى الوزارة مؤقتاً، ثم تشكك بعد قيل فى نواياه بتحريض منافسيه
 وحساده فقبض عليه، وصادر أملاكه، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه،
 بل ومتاعه بين عشية وضحاها.

(١) ابن الخطيب - الإحاطة - مخطوطة الاسكوريال، لرحة ٣٧.

هذه الذكبة لم تطل بابن الخطيب، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني، إلى ملك غرناطة الجديد يطلب إليه أن يسمح للملك المخلوع الغنى بالله ووزيره ابن الخطيب بأن يغادرا الأندلس إلى المغرب ضيفين عزيزين، فرضخ سلطان غرناطة الجديد لهذا الطلب سياسة منه، وإبقاء على أوامر الوداد مع بنى مرين، واحتفاظاً بهم سنداً فى مستقبل الدولة الإسلامية بالأندلس، وبهذا أطلق سراح ابن الخطيب ومعهما نفر كبير من الحاشية، فوصل الركب فاس فى ٦ محرم ٧٦١هـ / ٨ ديسمبر ١٣٥٨م، حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالاً حاراً، واحتفل بقدمهم احتفالاً عظيماً، وألقى ابن الخطيب فى هذه المناسبة بين يدى المضيف قصيدته الشهيرة، يستنصره ليعين سلطانه على أمره، وذلك حيث يقول:

قصدناك يا خير الملوك على النوى لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففتنا بك الأيام عن غلوائها وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذاك المجد، فانصرم الردى ولذنا بذاك العزم، فانهزم الشر
ولما اتينا البحر يرهب موجهه ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر

ومنها:

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى وأنت الذى ترجى إذا اخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيا المرين جاءه العز والنصر
وخذ يا أمام الحق ثاره فمن ضمن ما تاتى به العز والأجر^(١)

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل - بصفته من كبار رجال البلاط المرينى - فيصفه لنا ويقول: " إن ابن الخطيب استولى على سامعيه فأبكاهم تائراً "

(١) المقري - نفع الطيب ج ٣ من ص ٤٦ - ٤٨، والقصيدة ثمانون بيتاً، كما وردت فى أزهار الرياض ج ١ ص ١٦٧ - ٢٠٠، وفى اللوحة البدرية من ص ١١٠ - ١١٣ ونقلها ابن خلدون فى كتابه العبر ج ٧ من ص ٣٠٧ - ٣٠٩.

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب فى رعاية السلطان أبى سالم الذى أقطعه الأراضى، ورتب له الرواتب، حيث استقر فى سلا حوالى ثلاثة أعوام منفياً تقريباً (٧٦٠هـ - ٧٦٣هـ)، اقتنى خلالها الضياع والأموال ولكن لم ينس فى الوقت نفسه نزعته الثقافية والتأليفية، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً، ملتقىاً بالعلماء فى تجواله، وفى نهاية المطاف عاد إلى سلا، حيث رابط بضاحية (شالة)، قرب أضرحة ملوك بنى مرين.

هذا، وقد اصيب ابن الخطيب أبان هذه الفترة فى زوجته أم أولاده، وبالرغم من كل ما توالى عليه من نكبات متوالية فإنه لم يقعد عن التأليف، ولم يخلد إلى الراحة والسكينة، ويكفى دليلاً على ذلك تلك المؤلفات التى حررها وقتئذ وأهمها:

- ١ - معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار.
- ٢ - نفاضة الجراب، وعلالة الاغتراب.
- ٣ - اللوحة البديرية فى تاريخ الدولة النصرية.
- ٤ - الحلل المرقومة فى اللمع المنظومة^(١).
- ٥ - رقم الحلل، فى نظم الدول.
- ٦ - كناسة الدكان، بعد انتقال السكان.
- ٧ - رسائل فى فنون مختلفة، معظمها نظمه شعراً.

(١) هذا الكتاب يتناول فيه ابن الخطيب تاريخ الدولة الإسلامية، وقد أهدها للسلطان أبى سالم ملك المغرب. فكافأه عليه بمضاعفة رواتبه، كما كتب إلى ملك غرناطة المغتصب فى شأن الإفراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة، ونعد هذه لفظة ملكية سامية فى تكريم العلم والعلماء .

أما السلطان المنفى (الغنى بالله ابن الأحمر) فقد بقى من جانبه فى فاس، يترقب عودته لعرشه، معتمداً فى ذلك على مساعدة ملك قشتاله (بيدرو الثانى)، استناداً إلى اتفاق سابق بينهما، بيد أن هذا الاتفاق لم تنفذه قشتالة، إذا فضل بيدور الثانى التسليم بالأمر الواقع، ومسألة ملك غرناطة الجديد (إسماعيل بن الأحمر).

وفى هذه الأثناء تم انقلاب فى فاس، ترتب عليه مصرع السلطان أبى سالم، فى ذى القعدة ٧٦٢هـ / ١١ أكتوبر ١٣٦١م، وتقلد السلطة صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله، الذى أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره، ووقف إلى جانبه فى استرجاع عرشه، حتى سنحت الفرصة وواتت الظروف، وذلك باندلاع ثورة جديدة فى غرناطة، صرع فيها السلطان إسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبى سعيد، الذى فر إلى قشتالة عقب عودة الغنى بالله إلى الأندلس واستيلائه على مالقة، ثم دخوله غرناطة وتربيعة على العرش من جديد عام ٧٦٣هـ - ١٣٦١م - ١٣٦٢م.

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد وزيره المنفى ابن الخطيب ليقدم إلى دار ملكه، برسالة مؤرخة ١٤ جمادى الآخرة ٧٦٣هـ - ١٣٦١م، وذلك ليتقلد منصبه السابق، فاستجاب ابن الخطيب وجاز البحر، صحبة أسرة السلطان وأسرتة، حيث وصل العاصمة، وهناك وجد من يزاحمه منصبه وينافسه السلطة، وهو شيخ العزاة عثمان بن أبى يحيى، صاحب اليد على السلطان فى استرجاع العرش، فنشب خلاف بين الرجلين، وحقد كلاهما على الآخر، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد واللدس، فتغلب على خصمه، إذ زين للسلطان خطورة نفوذ (عثمان) هذا، وبدأ يخيفه من غدره، وغدر أشياعه، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب وقضى على عثمان وآله فى رمضان ٧٦٤هـ - ١٤ يونيو - ١٣ يوليو ١٣٦٣م. وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته دون مناوى أو منافس، ولكن إلى حين.

هذا، ويبدو أن تحولاً طرأ على سياسة ابن الخطيب العامة منذ الآن، إذ يحدثنا بنفسه عن هذا المسلك الجديد فى عمله بقوله:

”فاستعنت الله تعالى، وعاملت وجهه فيه، من غير تلبس بجرايه، ولا تشبث بهولاية، مقتصراً على الكفاية حدراً من النقد، حامل المركب، معتمداً على المنسأة، مستمتعاً بخلق النعل، راضياً بغير النبيه من الثوب، مشفقاً من موافقة الغرور، هاجر الزخرف، صادعاً بالحق فى أسواق الباطل، كافاً عن السخال برائن السباع، ثم صرفت الفكر إلى بناء الزاوية ومدرسة للتربية، بكر الحسنات بهذه الخطة بل بالجزيرة فيما سلف من المدة، فتأتى بمنة الله تعالى من صلاح السلطان وعفاف الحاشية والأمن، وردم الثغور، وتثمير الجباية، وانصاف الحماة والمقاتلة، ومقارعة الملوك المجاورة، فى إثثار المصلحة الدينية، والصدع فوق المنابر ضماناً من السلطان بترياق سم الثورة، وإصلاح بواطن الخاصة والعامة وما الله تعالى المجازى عليه، والمعوض من سهر خلعتة على اعطافه، وخطر اقتحمته من أجله“^(١).

هذا ما كان يعتمل فى نفس ابن الخطيب، من منهج عزم على ساوكة وتطبيقه بينه وبين نفسه، من رضا بشظف العيش على حد قوله، والتفتات بكليته إلى تدعيم أركان الدولة، وتوطيد عرش السلطان، متخذاً لهذا من الوسائل ما هو صالح ومشروع، متحملاً فى سبيل ذلك أمانة الوزارة، وما تفرضه من جهد جهيد، حتى لاحقه الأرق واقض مضجعه، فأبدى رغبته فى إعفائه من منصبه لبعض خاصته، ورغب بينه وبين نفسه فى مغادرة الأندلس، بعد أن شعر بما يحاك حوله من دسائس ومكائد، وبخاصة حين رأى سلطانه قد بدأ يتأثر بسعايه الخصوم، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان قويا

(١) المقرئ — نفع الطيب ج ٣ ص ٤٢.

التأثير فى السلطان بحكم وضعيتهما فى الخدمة السلطانية، ولما لهما من مكانه سياسية فى الدولة، هذان الرجلان هما:

١ - الوزير الشاعر محمد بن يوسف، المعروف ب (ابن زمرك) تلميذ ابن الخطيب ومعاونه فى الوزارة.

٢ - قاضى الجماعة بقرنطة أبو الحسن على بن عبد الله، ولى نعمه ابن الخطيب.

ويتلخص اتهام الرجلين لابن الخطيب فى أن الأول يتهمه بانتقاص السلطة من السلطان، وطغيان النفوذ، والاستبداد بالأمر، بينما اتهمه الثانى بالإلحاد والخروج على أحكام الدين، وهذه هى الطامة الكبرى، فقد بنى عليه فيما بعد - كما سنرى - صك الاتهام، وحيث حكم على الرجل بالموت.

حينئذ شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان بين هذين الرجلين الداهيتين، فدير أمره على مغادرة الأندلس نهائياً دون أن يشعر السلطان بذلك، وفعلاً طلب منه أن يأذن له فى تفقد بعض الثغور والموانئ الأندلسية الشرقية، فأجابته السلطان، بينما كان من جانبه قد أعد العدة للإبحار إلى المغرب، حيث يحل على السلطان أبى عنان بن أبى الحسن المرينى لاجئاً سياسياً. وقد تم له ذلك بوصوله إلى جبل طارق، وكان الجبل يومئذ ضمن أملاك المرينيين، ونجحت الخطة، إذ استقبله قائد ميناء الجبل بحفاوة، وسهل له مهمته بأمر من سلطان المغرب، وأجازه إلى سبتة هو ومن معه من ولده، وقبل أن يودع الوزير هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة إلى السلطان الغنى بالله، يعلل فيها مسلكه الأخير هذا، ويرر له تصرفه الاضطرارى، ثم يستسمحه فى الأخير طالباً غفرانه، مؤملاً العون لأسرته التى خلفها وراءه فى قرنطة.

وصل ابن الخطيب إلى سبتة، ومنها ألتحق بتلمسان مقر السلطان عبد العزيز، الذى احتفى به وأكرمه، ثم بعث بسفرائه إلى قرنطة. يلتمس من

سلطانها أن يجيز أسرة ابن الخطيب، فأجابه ابن الأحمر إلى طلبه، وكان ذلك عام ٧٦٣هـ - ١٣٦١م.

كان من المتوقع أن يهدأ ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب، فالسلطان قد احله مكانته اللائقة به، وابدله مما فقد الشيء الكثير، ولكن - للأسف - اتخذ منافسوه من هربه - على هذه الصورة - مادة دسمة للكيد، وأكدوا للسلطان أدانته، وعدم وفائه لولى نعمته، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصاً على أن يحمل معه أمواله وذخائره إلى المغرب، وفي هذا يقول له القاضى النباهى غريمه ضمن الرسالة التى بعث بها إليه "فهمزتم ولزتم، وجمعتم من المال ما جمعتم.. ثم هربتم بأثقالكم" (١).

هذا، ومن جانب آخر، لم يعدم الخصوم وسيلة لا يغار صدر السلطان تجاه ابن الخطيب، أيا كانت خطورة النتائج، فأولوا بعض كتاباته فى مؤلفاته وفق أغراضهم، وأسندوا إليه القول بالحلول، والطعن فى الرسول واعتبروا تاريخه وتراجمه من قبيل الاغتياب، وخاصة منها ما تناول فيه المؤلف المأخذ على المترجم لهم، وقد نشر هذه الدعاية الوزير عبد الله بن زمرك، وإعانه عليها القاضى النباهى، الذى أفتى بوجوب حرق كتب ابن الخطيب التى تناول فيها "العقائد والأخلاق"، وقد أحرقت بالفعل فى غرناطة فى منتصف عام ٧٦٣هـ / ١٣٦٣م بمحضر من الفقهاء والمدرسين من العلماء وأماثيل الفقهاء، لما تضمنته الكتب المذكورة من المقالات التى أوجبت ذلك عندهم، وحققته لديهم (٢)، وبذلك ضاعت مجموعة من نفائس مؤلفات ابن الخطيب، ضحية عمى البصيرة وشهوة الانتقام.

(١) المقرئ - نفع الطيب ج ٧ ص ٥٦.

(٢) أبو الحسن النباهى - تاريخ قضاة الاندلس ص ٢٠٢ طبعة القاهرة تحقيق ليفى برونسال.

كان الناضى النباهى فيما سبق من اصغار الوزير ابن الخطيب، بل أن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يد ابن الخطيب نفسه، كما نجد فى كتاب الإحاطة ترجمه للنباهى تنبئ عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل، إذ ينعته بأنه "قريع بيت مجادة جلاله، وبقيه تعين واصالة عف النشأة، طاهر الثوب، مؤثر للوقار والحشمة، بعيد الغور، مرهف الجوانب ناظم، نائر، نثره يشف عن نظمه، ذاكراً للكثير، بعيد المدى فى باب النزاهة، ماضيا غير هيوّب.. الخ" (١) ولكن ذلك "النباهى" تنكر تماماً لابن الخطيب، ولم يحفظ له هذا الجميل، فقد أزر الوزير "ابن زمرك" ضده وسعى سعياً حثيثاً فى سبيل القضاء عليه، وتتجلى هذه الروح الشريرة، وما يمليه الحقد الشخصى، والضغائن الدفينه، فى تلك الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى إلى ابن الخطيب بالمغرب، وفيها يأخذ عليه الانصراف إلى اقتناء الضياع والديار، كما أنه نسب إليه فى مؤلفاته بعض محدثات فى الدين، مما يمس الشريعة الإسلامية، وأنه تناول فى بعض هذه المؤلفات الأموات من الناس، وذلك بالطعن أو العيب فيهم، الأمر الذى يستنكره الدين.. إلى آخر ما جاء فى تلك الرسالة من مثل هذه المثالب. زيادة على تفسير النباهى لمواقف ابن الخطيب - سواء منها الخاص أو العام - بأنها لأغراض شخصية، وأهواء معينة، كمغادرته الأندلس مؤخراً رأى فيه النباهى غدراً بالسلطان ولى نعمته، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع لعبادة فى المغرب، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة، أو ابقى على نفسه بغيرناطة بجوار الكفاح والجهاد لنصرة المملكة الإسلامية، التى يتهددها خطر الأسبان فى كل حين.

(١) المقرئ - نفح الطيب ج ٣ ص ٧٨٥ - ٧٨٦.

كذلك عاب القاضي النباهى - فى هذه الرسالة - على ابن الخطيب أنه أقدم نفسه - بحكم منصبه الوزارى فى اختصاصه القضائى، وعدد له بعض الوقائع التى علل بها هذا التدخل فيما ليس من اختصاصه، بل ومنها ما يمس استقلال القضاء، وما ينبغى أن يتوفر للقائم به من حرمة وقداصة.

وفى الأخير ينهى النباهى رسالته بالنيل. من أسرة ابن الخطيب، وأنهم حديثو عهد بالنعمة، وأن ثروتهم هذه لم تأت إلا عن طريق المنصب والسلطة. وقد كان لهذه الرسالة^(١) أثر فيما بعد، حيث كانت صك الاتهام كما ذكرنا، وادين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها عندما حلت نكبتة، ودنت ساعة نحسه.

إن تاريخ هذه الرسالة يرجع إلى أواخر جمادى الأولى ٦٨٣هـ - ١٠/ نوفمبر ١٣٧١م، وقد تسامها ابن الخطيب بتلمسان، وأجاب على ما جاء بها مفصلاً فى كتابه "الكتبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة"^(٢)، وشدد النكر على القاضي النباهى، كما عاود النيل منه فى كتابه "أعمال الأعلام، فيمن بويغ قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام" ففيه يصفه بأنه "الجعسوس أى القزم الدميم" وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللدود، وسماها "خلع الرسن فى وصف القاضي أبى الحسن".

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) راجع : ترجمة ابن الخطيب للقاضي النباهى فى كتابه هذا، ص ١٤٦ - ٢٠٢ تحقيق الدكتور

إحسان عباس، بيروت ١٩٦٤م.

مضى كل من النباهي والوزير ابن زمرك في عزمهما على سحق غريمها ابن
خطيب. فبعد إحراق كتبه العقائدية، عمد النباهي إلى استصدار حكم الشرع
في جريمة الإلحاد وهو الإعدام وحصل من السلطان محمد الغنى بالله على
إقرار بهذا، وبعث سفراءه إلى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم، فقابل
السلطان رسل غرناطة بالاستنكار، وخاطبهم قائلاً: "هلا أنفذتم فيه حكم الشرع
وهو عندكم وانتم عالمون بما كان عليه!!!" وبالغ في إكرام ابن الخطيب،
وأضفى عليه مزيداً من عنايته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد
صديقه السلطان عبد العزيز ملك المغرب، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد
بلغ أوجه، فحرص السلطان المريني على امتلاك غرناطة، وكان يرمى من وراء
ذلك إلى سحق أعدائه هناك وتأمين مقامه بالمغرب، وما يتبع ذلك من حماية
مصالحه.

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولاً عند السلطان عبد العزيز، فصمم على
تنفيذها، وفي ذلك يقول ابن خلدون.

"ثم تأكدت العداوة بينه وبين ابن الأحمر، فرغب السلطان عبد العزيز في
ملك الأندلس وحمله عليه، وتواعد لذلك عند رجوعه من تلمسان إلى المغرب"^(١)
فتخوف ابن الأحمر لذلك كثيراً، وأسرع في إيفاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة
إلى بلاط فاس، أملاً في نيل رضا السلطان عبد العزيز واتقاء شره. ثم تفاجىء
الظروف فيموت السلطان عبد العزيز بعد ذلك بقليل، ويجلس على عرش المغرب

(١) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧، ص ٣٣٨، ص ٣٤١.

ابنه الطفل (أبو زيان محمد السعيد) فى الرابعة من عمره، خلال عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م، وقبض على زمام السلطة الفعلية وربره (أبو بكر بـ غازى)، فتغيرت الأوضاع السياسية بالمغرب تماماً، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف إلى الملك الطفل ووزيره. فألف كتابه المعروف "أعمال الاعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام"، وفيه برز هذا الوضع الجديد شرعاً وعملاً وتاريخاً، وأورده لذلك الأشياء والنظائر.

وفى هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للإيقاع بأن الخطيب، ذلك أن أوعز إلى الوزير ابن غازى أن يرسله إليه، فامتنع ابن غازى، وتوترت العلاقات مرة أخرى بين غرناطة وفاس، الأمر الذى حمل ابن الأحمر على أن يوغر صدور بعض الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس، وبذل فى سبيل هذا مساعدات ضخمة كما اقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم وبخاصة حكام سبتة محمد بن عثمان - بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلاً راشداً لا طفلاً صغيراً لا يدرك شيئاً، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن سالم ملكاً على المغرب، وأنه أى محمد بن عثمان - سيكون الوزير القادم، وإعطاء المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة شروط أثر نجاح الخطة، وهى:

١ - تسليم ابن الخطيب.

٢ - تسليم الأمراء المرينيين المناهضين لابن الأحمر.

٣ - تسليم جبل طارق.

وقعت بعض الحوادث بالمغرب، وتمخضت عنها ثورة قاضية، أدت إلى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ونودي حينئذ بالأمر أحمد بن السلطان أبي سالم والياً على المغرب في ١٢ يونيو ١٣٧٤م، وأسرع السلطان الجديد إلى القبض على ابن الخطيب وسجنه، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية وزيرنا المنكود، فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس ابن داود من الد الخصوم لابن الخطيب، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة فوراً سفيره عبد الله بن زمرك، ليشهد آخر فصل لهذه الرواية، وليدق آخر مسمار في نعش ابن الخطيب، وكان أن عقد السلطان أحمد مجلساً بفاس من مستشاريه وكبار رجال الدولة، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس حول كافة الإدعاءات المقامة ضده، وبالأخص دعوى الإلحاد، تلك الدعوى التي صاغها القاضي النباهي من قبل، وكان مجلساً صورياً بطبيعة الحال، فإن نتيجة المحاكمة كانت مقررة ومتفقاً عليها في كل من غرناطة وفاس.

لقد أودى ابن الخطيب أمام شهود هذه المؤامرة، وأفتى الفقهاء المتعصبون بإعدامه، شرعاً، فأعيد إلى سجنه، حيث دبر الوزير سليمان بن داود أمر قتله في السجن، وفعلاً بعث إليه بعض الأشرار الذين قتلوه خنقاً، وقد تم ذلك في أواخر عام ٧٧٦هـ - مايو أو يونيو ١٣٧٥م. وفي الصباح سحبت جثته إلى الفضاء حيث تم حرقها، ودفن بضاحية فاس^(١).

هذا، ويروى المقرئ أنه تمكن من معرفة قبر ابن الخطيب، وذلك خلال إقامته مبكراً بفاس، أوائل القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر الميلادي)، فزاره حيث يرقد، وفي هذا يقول:

(١) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ - ص ٣٤٢.

”وقد زرتة مراراً - رحمه الله تعالى - نفاس المحروسة، فوق باب المدينة
الذى يقال له باب الشريعة، وهو يسمى الآن ”باب المحروق“، وشاهدت موضع
دفنه غير .، تو مع الأرض، بل ينزل إليه بانحدار كثير“^(١).

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر، وأهدى العلوم
والمعارف من نفائس.

(١) ابن خلدون - كتاب العبر ج ٧ ص ٣٤١ - ص ٣٤٢.

الوزارة

تذكر كتب اللغة والقواميس أن لفظة " الوزارة " فعلها "وزر" والمضارع منه "يزر" كوعد يعد والمصدر "وزرا، ووزرا، ووزر الرجل الشيء، بمعنى حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة، ووزر للملك أى صار له وزيراً. وأزره مؤازرة، عاونه على الأمر وقواه.

والوزر بكسر وسكون الزاى هو الأثر، والذنب، والجمع منه أوزار، ويطلق على الحمل الثقيل، والموزور هو المرتكب للأثم، والوزارة، رتبة الوزير وولايته، والوزير يجمع على وزراء، وهو من بعثه الملك أو صاحب السلطة العليا فى البلاد ليتولى شئون الدولة، فيستعين برأيه وتدييره.

أما الوزر بفتح الواو والزاي - وهو مصدر أيضا لوزر - بمعنى الملجأ، وأوزر الشيء بمعنى خباه، كما يطلق الوزر أيضا على الجبل وكل ما يحتمى به من مانع أو ستار^(١).

فى القرآن الكريم :

يقول جل شأنه. ﴿ وَاجْعَلْ لِي زَيرًا مِنْ أَهْلِي ﴾ ﴿ هٰرُونَ أَخِي ﴾ ﴿ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴾ ﴿ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ ﴿^(٢) وَيَقُولُ: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ حَكِيمًا هٰرُونَ زَيرًا ﴾^(٣).

قال الراغب فى كتابه "مفردات القرآن. الوزير، الملجأ الذى يلتجأ إليه من الجبل. وفى الآية ﴿ كَلًّا لَا وَزَرَ ﴾^(٤)، أى لا ملجأ..ن والوزر. الثقل - تشبيها بوزر الجبل. ويعبر بذلك عن الأثم كما يعبر عنه بالثقل، وفى الآية ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾^(٥) على معنى آية العنكبوت ﴿ وَلِيَحْمِلْنَ أُنْقَالَهُمْ وَأُنْقَالًا مَعَ أُنْقَالِهِمْ ﴾^(٦).

(١) انظر لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة "وزر".

(٢) سورة طه الآية ٢٩٠.

(٣) سورة الفرقان الآية : ١١.

(٤) سورة القيامة الآية: ١١.

(٥) سورة العنكبوت الآية : ٢٥.

(٦) سورة النحل الآية: ٢٥.

- والوزير. المتحمل ثقل اميره ومشغله.

- والوزارة . على بناء الصناعة.

وأوزار الحرب، وأحدها وزر. وآلتها من السلاح.

- والموازرة، المعاونة، وآزرت فلانا موازرة. أعنته.

- والآية من سورة فاطر ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾^(١): أى لا يحمل وزره من

حيث يبرأ المحمول عنه. بل هو كما فى الحديث الصحيح "ومن سن سنة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها" الخ، بحيث يكون مرتكب الوزر مسئولاً عما فعل أيضاً.

وفى الآية من سورة الشرح ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴿۱﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ

﴿۲﴾^(٢) أى أعفيناك من فعل ما كان يعمله أهل الجاهلية، فلم تحاكمهم.

هذا ما ذكره الراغب الأصفهاني من كتابه فى مادة "وزر".

فى الحديث النبوى:

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها - فى حديث يوم السقيفة:

".. ثم تكلم أبو بكر، فقال فى كلامه للأنصار. نحن الأمراء، وأنتم الوزراء"، فقال حباب بن المنذر "لا، والله لا تفعل، منا أمير ومنكم أمير"، فقال أبو بكر. "ولكننا الأمراء، وأنتم الوزراء.. الخ"^(٣) ورواه الإمام أحمد فى مسنده "عن حميد ابن عبد الرحمن قال: سعد بن عبادة لأبى بكر: "نحن الوزراء وأنت الأمراء فقال أبو بكر... الخ"^(٤).

(١) سورة فاطر الآية: ١٨.

(٢) سورة الانشراح الآية. ٢ - ٣

(٣) البخارى : ح ٨/٥.

(٤) المسند : ح ٥/١.

- ولا منافاه بينهما، لجواز أن كلا منهما قال ذلك لأبي بكر.

وروى الإمام أحمد في مسنده حديثاً عن عبد الله بن مسعود، قال:

“إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه. فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيء”^(١).

وعن الإمام أحمد أيضاً، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: “ويل للوزراء، ليتمنين أقوام يوم القيامة أن ذواتهم كانت معلقة بالثريا، يتذوبون بين السماء والأرض وأنهم بلوا عملاً”^(٢).

كما روى أيضاً في “مسنده” قال علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه: “سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: “ليس من نبي كان قبلي إلا وقد أعطى سبعة نقباء ووزراء نجباء، وأنى أعطيت أربعة عشر وزيراً نقيباً نجيباً. سبعة من قريش وسبعة من المهاجرين”^(٣).

وروى الإمام أحمد كذلك في مسنده، قال علي بن أبي طالب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه لم يكن قبلي نبي إلا قد أعطى سبعة رفقاء نجباء ووزراء، وأنى أعطيت أربعة عشرة، وهم: حمزة وجعفر، وعلي، وحسن، وحسين، وأبو بكر، وعمر، والمقداد، وعبد الله بن مسعود، وأبو ذر، وحذيفة، وسلمان، وعمار، وبلال”^(٤).

(١) السابق: ح ٣٧٩/١.

(٢) السابق: ح ٨٨/١.

(٣) السابق: ح ٥٢١/١.

(٤) السابق: ح ١٤٨/١.

وروى أبو داود من كتابه في باب "الإمارة"، وقال:

"باب في اتخاذ الوزير" وبسنده عن عائشة قالت: قال النبي صلى الله عليه

وسلم:

"إذا أراد الله بالأمر خيراً جعل له وزير صدق فإن نسي ذكره، وأن ذكر أعانه. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، أن نسي لم يذكره، وأن ذكر لم يعنه"^(١).

ثم ذكر أبو داود رواية ثانية عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.

ونعود مرة أخرى إلى الإمام أحمد، لنجد أنه روى عن السيدة عائشة قالت:
قال النبي صلى الله عليه وسلم: من ولاه الله من أمر المسلمين شيئاً - فأراد به خيراً - جعل له وزير صدق، فإن نسي ذكره، وأن ذكر أعانه"^(٢).

وروى الترمذى بسنده إلى أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الأرض، فأما وزيراي من أهل السماء فجبريل وميكائيل. وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر".

قال الترمذى.. حديث حسن غريب"^(٣).

في بعض المؤرخات:

"يقول ابن خلدون في المقدمة".

(وأعلم أن السلطان في نفسه ضعيف، يحمل أمراً ثقيلاً، فلا بد من الاستعانة بأبناء جنسه، وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهنته، فما ظنك

(١) السابق: ج ٣/١٣١.

(٢) المسند: ح ٦/٧٠.

(٣) السابق: ح ٥/٢٧٨.

بسياسة نوعه ومن استرعاه من خلقه وعباده؟ وقد طلب موسى من الله سبحانه وتعالى ان يمدده برجل من أهله، يستعين به على القيام بأعباء الحكم، فقال: "واجعل لي وزيراً من أهلي، هارون أخى، أشدد به أزرى. وأشركه فى أمرى"^(١).

ويذكر فى هذا الصدد قول ابن طباطبا:

"الوزير وسيط بين الملك ورعيته، فيجب أن يكون فى طبعه شطر يناسب طباع الملوك، وشطر يناسب طباع العوام، ليعامل كلا الفريقين بما يوجب له القبول والمحبة، والأمانة وصدق رأس المال. قيل: "إذا خان السفير بطل التدبير". وقيل: ليس لمكذوب رأى، والكفاءة والشهامة من مهماته، والفتنة والتيقظ والدماء والحزم من ضرورياته. ولا يستغنى أن يكون مفضلاً مطعماً، ليستميل بذلك الأعناق، وليكون مشكوراً بكل لسان، والرفق والأناة، والتثبیت فى الأمور، والحلم والوقار والتمكين ونفاذ القول لما لا بد منه"^(٢).

قال المارودى فى شأن الوزير:

"... ولان ما وكل إلى الإمام من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جمعية إلا باستنابة... ونيابة الوزير المشارك له فى التدابير أصح فى تنفيذ الأمور من تفرد بها، ليستظهر به على نفسه، وبها يكون أبعد من الزلل، وأمنح من الخلل"^(٣).

وهكذا نرى أن لفظة الوزارة ومشتقاتها قد وردت بمعنى واحد فى اللغة والقرآن، والحديث، والمؤرخات، ودارت حول مدلولها العام والخاص، اشتقاقاً من "الوزر" وهو الثقل و العبء، فالوزير يتكفل بأعباء الحكم وأثقاله. أو اشتقاقاً من "الوزر" وهو الملجأ والمعتم، لأن الملك يلجأ إلى رأى الوزير. كما يمكن أن

(١) المقدمة : ص ١٠٤.

(٢) الفخرى فى: الآداب السلطانية: ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) المارودى فى: الأحكام السلطانية - ص ٢١.

تكون اللفظة مأخوذة من "الاز" بمعنى "الظهر"، لأن الملك يموى بوزيره حموة
البدن بالظهر^(١). فتلك ثلاثة أوجه فى مدلول كلمه الوزارة، وأن كان ابن
خلدون يرى أن اسلمها يدل على مطلق الأعانة فإن الوزارة أما من "المؤازرة"
وهى المعاونة، أو من "الوزر وهو الثقل، وهو راجع إلى المعاونة المطلقة^(٢).

بيد أن بعض المستشرقين يرجعون لفظة "الوزارة" إلى اللغة البهلوية وهى
الفارسية ا - يمة، منظرين بين كلمة "فشير" البهلوية وكلمة "وزير" والأولى تعنى
فى لغتها: القاضى أو الحكم. ولكننا ندرك مدى الفرق بين الوزارة والقضاء،
الأمر الذى لا يجعلنا نجارى المستشرقين فى قولهم باشتقاق الكلمة من هذا اللفظ
من الفارسية القديمة، بالإضافة إلى ورود لفظة "الوزير" فى القرآن الكريم - كما
ذكرنا - بمعنى "النصير" وكل ما فى الأمر أن اللفظ بمعناه السياسى مستحدث
فى الإسلام، وقد كان متداولاً عند بنى إسرائيل قبل أهل فارس، كما كانت
الوزارة معروفة بمعناها الواسع فى السياسة عندهم.

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٩٧ "فصل: ٣٤ - وفى مراتب الملك".

(٢) المصدر السابق: ٣٤/١٩٨.

الوزارة

عبر العصور الإسلامية

فى عهد النبوة والراشدين:

لم تكن الوزارة فى بدء الدولة الإسلامية متعارفة بالمعنى سيسى ،إن كاسد مستعملة اللفظ بمعناها الوظيفى على وجه ما ، حيث يشير ابن خلدون إلى ذلك فيقول:

” وما زال الأمر فى الدول قبل الإسلام هكذا، حتى جاء الإسلام وصار الأمر خلافة، فذهبت تلك الخطط كلها بذهاب رسم الملك، إلا ما هو طبيعى من المعاونة بالرأى، والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله، إذ هو أمر لا بد منه فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى، حتى كان العرب الذين عرفوا الدول وأحوالها فى كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيراً. ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين المسلمين لذهاب رتبة الملك بسذاجة الإسلام، وكذا عمر مع أبى بكر، وعلى وعثمان مع عمر“^(١).

فمن هذا النص نرى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستشير صحابته، ويطلب رأيهم فى شتى المسائل والمشكلات، وخاصة الصديق أبا بكر، حتى أطلق عليه الكثيرون يومئذ ”وزير النبى“ ولا شك أن هؤلاء يعرفون مدلول هذا اللفظ عند آل ساسان بحكم اختلاطهم بهم أو سماعهم عنها عندهم. ولما تولى أبو بكر الخلافة كان عمر بمثابة الوزير لديه، فقد كان يتولى الشؤون القضائية بأمر الخليفة، ويقسم الزكاة على المستحقين. والشأن كذلك فى عهد عمر بالنسبة لعثمان وعلى، حيث كان يستشيرهما، ويعهد إليهما ببعض شئون الدولة، ولا سيما عليا الذى كان يححر الرسائل ويقضى بين الناس، ويفتدى أسرى المسلمين.

(١) المصدر السابق: ٣٤/١٩٨.

وقد روى بعض المؤرخين^١، عمر بن الخطاب أوفد عبد الله بن مسعود إلى الكوفة ليعلم الناس هناك أمور دينهم وقال: " أنى بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود وزيراً".

وعلى هذا فإن الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين كانوا يقومون بالأعمال التي يضطلع بها الوزير عادة، وكان الخليفة يعتمد في إدارة شؤون الدولة على استشارة ذوى المعرفة والرأى من كبار الصحابة وأعيان القوم وشيوخ القبائل، وكثيراً ما عقد هؤلاء مجالسهم الاستشارية في مسجد المدينة، يتوسطهم في كثير من الأحيان الذين رافقوا النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً في حله وترحاله، ولا أدل على هذا من الأحاديث النبوية التي أوردناها للإشارة إلى ما تعنى كلمة الوزارة ولفظ الوزير في "الحديث النبوي".

في عهد الأمويين والعباسيين:

وجاءت الدولة الأموية لتقوم على نظرية الملكية الوراثية، وكان لا بد لخلفائها مع هذا من أن يستعينوا ببعض ذوى الرأى والثقافة للقيام ببعض المهام، أو يستشيرونهم فيما يعن لهم من أمور المملكة، فقربوهم إلى بلاطهم وأفسحوا لهم في مجالسهم، فكان هؤلاء يقومون بما يناط بهم من أعمال الوزراء، دون أن يخلع عليهم هذا اللقب، ومع هذا فقد كان زياد بن أبيه^(١) يلقب بلقب الوزير، في عصر معاوية بن أبى سفيان، وهكذا روح بن زنباع الجذامى في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

(١) هو زياد بن سمية بنت الأعور، قدم إلى معاوية عام ٤٢هـ، فجعله أحاً له من ولد أبى سفيان واستلحقه بنسبه، لئفض يده من العلويين، فقد أضاف إلى مهامه أنسابقة ولاية الكوفة، كما جمع له الهند والبحرين وعمان، بحيث صار أثيراً لديه رلا سيما في هذا المجال السياسى
اسنن .. أسد النابة ٢/ ٢١٠ - تاريخ الـ عرب - ٢/ ٢٥٩، والكمال - ٣/ ٢١٠ - ٢٤٥

وقد جلب على "الوزير" فى هذا العهد - الذى تطورت فيه هذه الوظيفة - أن يعرف باسم "الكاتب"، كما عرف الوزراء باسم "الكتاب" مثل "عبد الحميد الكاتب"، الذى ولى شؤون الوزير للخليفة مروان بن محمد وجرى هذا النظام خاصة فى أخريات عصر الأمويين. ومن هذا يتضح لنا أن الوزارة قد تبلور مفهومها عند خلفاء بنى أمية، وأن لم تكن قد ظهرت خصائصها جلية، وتقررت قواعدها فى وضوح وتمييز.

أما فى عهد بنى العباس الذين كانوا يميلون إلى توزيع السلطات غاباً - فقد استحدثوا منصب "الوزير" أثر انتصار الجيوش العباسية على الأموية، مراعين فى هذا تطور الدولة، ومقتبسين هذا النظام الوزارى من الدولة الفارسية ضمن نظم أخرى فى الحكم، وصار "الوزير" فى عهدهم الساعد الأيمن للخليفة، بحيث يباشر أهم شؤون المملكة، من تنصيب العمال وعزلهم، ومباشرة ميزانية الدولة فى مورد ومصرف، وربما ناب على الخليفة أحياناً، فتقلد كافة السلطات، وفى غير هذه الحالة كان يشرف على ديوان الكتابة أيضاً، إلى جانب قيامة بالمهام العادية لأمثاله، يقول ابن خلدون فى هذا الصدد: "فلما جاءت الدولة العباسية، واستفحل الملك، وعظمت مراتبه وارتقت - عظم شأن الوزير، وصارت إليه النيابة فى أنفاذ الحل والعقد، وتعيينت مرتبته فى الدولة، وعينت لها الوجوه، وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر فى ديوان الحساب، لما تحتاج إليه خطته من قسم الاعطاءات فى الجند، فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه.

واضيف إليه النظر فيه، ثم جعل له النظر فى القلم والترسل لصون أسرار السلطان، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور، وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذيعاب والشيعاب، ودفع إليه. فصار اسم الوزير جامعاً لخطتى السيف والقلم، وسائر معانى الوزارة والمعونة، حتى لقد نعى جعفر بن يحيى (البرمكى) بالسلطان أيام الرشيد، إشارة إلى عموم نظره وقيامه

بالدولة، ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة، التي هي القيام على الباب، فلم تكن له، لاستنكافه عن مثل ذلك" (١).

وإذا تتبعنا تطور النظام الوزاري في العصر العباسي وجدنا أن ذلك - كما رأينا في النص السابق - قد اختلف تبعاً للظروف والأحوال، ففي بداية الدولة أقر أبو العباس نظام الوزارة متأثراً - في أغلب الظن - بالفرس والخراسانيين خاصة، حيث كانوا الأنصار الفعليين للعباسيين، ومن ثم نصب أبو العباس الوزير أبا سلمة الخلال، وأقره على اختصاصات أنيطت به. وكانت هذه الاختصاصات محدودة، إذ لم تكن له صلاحية مباشرة سلطات جميع الدواوين، فديوان الجند والخراج لم يكونا تحت إشرافه، بل كانا في قبضه خالد بن البرمك، حتى أن خالداً هذا رفض تلقيبه بالوزير أثر مصرع الخلال، مع أن كافة السلطات قد صارت إليه ومنها ديوان الخراج والجند (٢). ويؤيد هذا التطور التاريخي ابن طباطبا، فيقول: "والوزارة لم تمهد قواعدها، وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس، فأما قبل ذلك فلم تكن مقننة القواعد، ولا مقررة القوانين، بل كان كل واحد من الملوك اتباع وحاشيه، فإذا أحدث أمر استشار ذوى الحجا والأراء الصائرة، فكل منهم يجرى مجرى وزير، فلما ملك بنو العباس تقرررت قوانين الوزارة وسمى الوزير وزيراً، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً" (٣).

ويرسم لنا أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم إجراءات ترشيح الوزير وتنصيبه، فيقول: "وإذا ما رشح شخص للوزارة أرسل إليه الخليفة اثنين من الأمراء يحملان كتاب الخليفة إليه، فيسير إلى دار الخلافة، ثم يمثل بين يدي

(١) مقدمة ابن خلدون - ص ٢٠٧.

(٢) الفخرى في الأداب السلطانية - ص ١٣٠.

(٣) المصدر السابق - ص ١٣٧.

الخليفة، ثم ينصرف إلى حجرة أخرى ليرتدى لباس "التشريف" ثم يمثل به أمام الخليفة، فيقبل يده وينصرف. فإذا بلغ الباب وجد حصاناً مزيناً فى انتظاره، فيمتطيه ويسير إلى دار الوزارة، وقد سبقه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجاب القصر والموالى. فإذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال، ثم يقرأ سجل تعيينه" (١).

محاذير الوزارة:

وينبغى أن نشير هنا إلى أن كثيراً من الوزراء على مر العصور الإسلامية - كانوا يتوجسون خيفة من الخلفاء ويتحسسون مواطن الخطر فى بلاطهم، وذلك لعدة أمور، لعل فى مقدمتها عدم تحديد الاختصاصات الموكولة إلى الوزير ومدى السلطات المخولة له، الأمر الذى يترتب عليه وقوع التصادم أحيانا بين الخليفة والوزير، أو بين الوزير والقائد الحربى مثلاً. كما كان من ضمن أسباب خطورة هذا المنصب السعاية والوشاية بالوزير لدى السلطان، ولا سيما من أولئك الذين يتربصون به الدوائر ويتحينون للايقاع به الفرص والمناسبات، ويمكننا أن نضيف إلى تلك الأسباب المؤدية بهذا المنصب الوزارى إلى الخسران أو الهلاك أحيانا طغيان الوزير واستبداده، وسوء استعمال السلطة، أو ظهور الثراء الفاحش المفاجئ على أحواله الاجتماعية، والتاريخ شاهد على تلك الأسباب التى تجعل منصب الوزارة محفوفاً بالمحاذير والمخاطر ويكفى أن نسوق فى هذه المناسبة نكبة البرامكة فى العصر العباسى على يدى الرشيد، ومن قبل قام أبو جعفر المنصور بوضع السم فى طعام أبي الجهم ثانى وزراء العباسيين، الذى استوزره السفاح فترة، وكان المنصور يتربص له الفرصة التى واتته بوفاة السفاح، ففعل. ويروى، أن أبا الجهم لما شعر بالسم يسرى فى بدنه نهض منصرفاً من مجلس المنصور فسأله: إلى أين؟ قال: إلى حيث بعثتنى يا أمير المؤمنين (٢).

(١) د. حسن إبراهيم فى "النظم الإسلامية" - ص ١٣٢.

(٢) ابن طباطبا فى "الفخرى فى الأداب السلطانية" ص ١٤٠.

ولعل ظاهرة التصادم بين الخليفة والوزير هي التي دفعت كثيراً من الوزراء إلى أن يحاولوا تفادي التسمية بالوزير، وربما فضلوا لقب الكاتب أو ما إلى ذلك تأميناً للمستقبل، ويرى بعض المؤرخين أن خالد بن برمك إنما كره تسليته "وزيراً" بسبب خوفه من انقضاء الخليفة عليه كما فعل ذلك بأبي سلمة الخلال سلفه، وذكروا أن السفاح قال له يوماً: يا خالد، ما رضيت حتى استخدمتنى! ففزع خالد من كلام الخليفة، وقال: كيف يا أمير المؤمنين، أنا عبدك وخادمك؟ فضحك الخليفة، وقال: إن "ريطة" ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد، فأقوم بالليل فأجدهما قد أنسرح الغطاء عنهما فأرده عليهما، فبلغ الخوف بخالد مبلغاً عظيماً، وإذا هو ينكب على يدي السفاح ويقبلها ويقول: مولى يكتسب الأجرة في عبده وأمته^(١)!

وفى الغرب الإسلامي بالأندلس يذكر في هذا المجال حادث بنى سراج وزراء بنى الأحمر ونكبتهم، بل أن ابن الخطيب المؤلف لهذا الكتاب - نفسه لم يكن بأحسن حظاً ممن سبقه من نظرائه الوزراء السابقين على مر العصور الإسلامية، فقد لاقى نفس المصير بطريق غير مباشر، وذلك عندما سعى به إلى القتل سلطانه الغنى بالله محمد الخامس لدى أمراء فاس المعاصرين، فنكلوا به وقتلوه حسبما أشرنا إلى هذا عند حديثنا عن ابن الخطيب في المقدمة.

قمة منصب الوزارة:

بلغت وظيفة الوزير أوج قمتها في الصدر الثاني من العصر العباسي، إذ جدد كثير من الأمور على الدولة، وناء الخليفة ببعض المهام التي لم ير بدا من إضافتها إلى الوزير، ففي عهد المهدي العباسي اسند رئاسة الدواوين والشؤون الإدارية إلى الوزير. وشمل هذا الاشراف على الجيش، وكان معنى هذا امتداد سلطات الوزير الذين كان تعيينهم يتم وفقاً لكفاءاتهم الكتابية والإدارية، وعليه

(١) د. حسن إبراهيم في "النظم" ص ١٠٠.

فقد اتسع المجال أمام ذوى الشخصيات المبرزة فى هذا الميدان، كما لا ننسى أن رجالات البلاط كان لهم فى كثير من الاحيان رأى فى تعيين هذا الوزير أو إقصاء ذلك.

ويأتى عهد الخليفة هارون الرشيد ليشهد التاريخ مرحلة من القوة والمجد فى مجال الوزارة لم نعرفه من قبل، ويبلغ نفوذ الوزير حدا عظيما أبان حكم هذا الخليفة حينما استوزر يحيى بن برمك، وألقى إليه بكافة مقاليد السلطة وقال له: "يابنى، قلدتك أمر الرعية، واخرجته من عنقى إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، وأعزل من أردت، وأنى غير ناظر معك فى شيء" وعين ولديه جعفر والفضل معاونين له.

فوكل الوالد أمر الشؤون الإدارية إلى ابنه الفضل. أما جعفر فقد تولى بعض أمور ديوان البلاط. ومن زاوية أخرى نرى الرشيد وقد فوض البرامكة الأشراف على سك العملة بدور الضرب، وذلك لتحديد معايير الذهب والفضة بالنسبة للمعادن الأخرى التى تدخل فى سكها، بيد أن البرامكة كثيراً ما استغلوا مناصبهم السامية هذه فولوا من شاءوا من أنصارهم وأعوانهم، بل حصروا الوظائف القيادية فى هؤلاء الأشياع. كما وضعوا أيديهم على موارد الدولة المالية وخزائنها "حتى كان هارون يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه، فعظمت آثارهم، وبعدت حيلتهم، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، وأحتازوها لأنفسهم عن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك، وأفاضوا فى رجال الشيعة وعظماء القراية العطاء"^(١).

(١) ابن الجوزى "المعنى فى الآداب" المطبوعة سنة ١٢١٨ زى ١٣١٤ هـ

ويكفى للتدليل على مكانة جعفر البرمكي من نفس الرشيد، وعلو شأنه يومئذ ما رواه ابن طباطبا حين ذكر: أن عبد الملك بن صالح بن العباس طلب إلى جعفر أن يخاطب الرشيد في ثلاث حوائج هي: أن يقضي عنه ديناً مقداره ألف ألف درهم، وأن يولى ابنه إحدى الولايات ليرتفع بذلك قدره، وأن يزوجه الابن من ابنة الخليفة لأنها بنت عمه فقضى له جعفر هذه الحوائج الثلاث من فوره، وقال له: أما المال ففي هذه الساعة يحمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا. فانصرف في أمه الله وعادل إلى منزله ليجد المال قد وصل قبله، وفي الغد أفضى جعفر إلى الرشيد بما جرى فأقره على ما فعل، بحيث لم يغادر مجلس الخليفة حتى كان قد قلد عبد الملك ولاية مصر، وزوجه من ابنته^(١).

كذلك أمتاز عصر المأمون بظاهرة النفوذ الوزاري، فقد فوض هذا الخليفة إلى وزيره الفضل بن سهل - الفارسي الأصل - حرية التصرف في الشؤون السياسية، وممارسة الأمور الإدارية، وقيادة المهام العسكرية، حتى خلع عليه لقباً جديداً هو "ذو الرئاستين"، ولكن المأمون - وقد ألقى الفضل استبد فيما وكل إليه، وصيغ رسوم الدولة بالتقاليد والعادات الفارسية - نكبة حين شعر بخطورته على سلطات الخلافة، تماماً كما حدث للبرامكة، وقد بلغوا قمة مجدهم الوزاري فنكل بهم والده الرشيد بين ليلة وضحاها، فأصبحوا أثراً بعد عين، وعرف حادثهم في التاريخ باسم "نكبة البرامكة".

هذا - وقد مرت على الدولة العباسية فترات تراوحت فيها صفة الوزارة بين الضعف والقوة، وكان مرد هذا إلى شخصية الخليفة نفسه من جهة، وللظروف والملايسات التي كانت تواكب المهام الملقاة على عاتق الوزير، حتى آل الأمر في

(١) ابن طباطبا في "الفخرى في الآداب السلطانية" ص ١٨٨ وما بعدها.

أواخر هذه الدولة إلى ضعف الشخصيات عن الخلفاء، ولم ينكر الناس عليهم أن تسند الوزارة إلى غير المسلم، فقد نصب عضد الدولة وزيرين له كان أحدهما مسيحياً^(١). بل أن الوزارة أضحت وراثية كالخلافة أخيراً لدى بعض الأسر العريقة أو ذات الجاه أو ممن طارت لها شهرة في دواوين الكتاب، مثل آل وهب وآل الجراح في العراق، وفي أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل الخامس خلع الوزراء على أنفسهم ألقاباً أشبه ما تكون بألقاب الخلفاء "مشرف الملك"، و"سعد الدولة"، وما إلى ذلك، وقد غلب هذا الاتجاه حينما أذنت شمس الخلافة الإسلامية بالأقول.

(١) الحضارة العربية (معروف) ص ٢٨ - ٢٩.

نوعا الوزارة

وزارة التفويض

وزارة التنفيذ

امتازت الوزارة في العصر العباسي بصفة خاصة بتنوعها إلى:

وزارى التنفيذ: وهى التى تكون فيها للوزير صفة شخصية، وإنما يقتصر أمره على تنفيذ تعليمات الخليفة فهو على حد تعبير بعضهم - همزة الوصل الوحيد بين الإمام والشعب^(١).

وقد فصل الماوردى ما ينبغى أن يتوفر من شروط فى "وزير التنفيذ" كما يلى:

١ - الامانة: لئلا يخون فيما قد أوتمن عليه، ولا يخش فيما يقدمه من إرشاد وتوجيه.

٢ - الصدق: حتى يكون موثوقا به فيما يخبر به أو يؤديه من واجبات.

٣ - النزاهة: فلا يقبل الرشوة فيما وكل إليه، ولا ينخدع فيلين جانبه.

٤ - أن يجتهد فى تنقية نفسه من البغضاء والعداوة للناس، فإن ذلك يحول بينه وبين الأنصاف، ويصده عن التعاطف.

٥ - أن يكون ذكورا لما يقضى به إلى الخليفة أو عنه، لأنه شاهد له وعليه.

٦ - أن يكون على درجة فائقة من الذكاء والحصافة، حتى لا يدلس عليه فيشتد به الأمر عليه، ولا يموه عليه فيليس عليه.

٧ - ألا يكون من أهل الأهواء، فيزل به الهوى من الحق إلى الباطل ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "حبك الشئ يعمى ويصم".

(١) أحكام الماوردى - ص ٢٥.

٨ - أن يتوفر على درجة من الحنكة والتجربة، بحيث تفضى به إلى الصواب فيما يدبره، ولا سيما وأنه مفروض فيه المشاركة فى رأى والتخطيط، أو ينتهى إليه مع كثرة الممارسة، "ولا يجوز أن تقوم بذلك امرأة وأن كان خبرها مقبولاً، لما تضمنه معنى الولايات المصروفة عن النساء، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: "ما أفلح قوم اسندوا أمرهم إلى امرأة". ولأن فيها من طلب الرأى وثبات العزم ما تضعف عنه النساء. من الظهور فى مباشرة الأمور ما هو عليهن محظور، ويجوز لأن يكون هذا الوزير من أهل الذمة، وأن لم يجز لن يكون وزير التفويض منهم^(١).

وزارة التفويض:

هى أن يفوض الخليفة إلى الوزير النظر فى أمور الدولة، وأن يدبر شؤونها دون الرجوع إليه، فيما عدأ ولاية العهد، وأن يعزل الخليفة من ولاهم الوزير إذا ما تراءى له ذلك، وعلى هذا نرى أن سلطة "وزير التفويض" أعلى من سلطة "وزير التنفيذ": واطخر شأنأ، ومجال الاجتهاد فيها مطلق للوزير.

وقد نص الماوردى على الشروط الواجب توفرها فيمن أسندت إليه وزارة التفويض، فقال:

"ويعتبر فى تقليد هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده، لأنه ممضى الآراء، ومنفذ الاجتهاد، فاقضى أن يكون على صفات المجتهدين، ويحتاج فيها إلى شروط زائدة، وهو أن يكون من أهل الكفاية فيما وكل إليه من امرى الحرب والخراج، خبرة بهما ومعرفة بتفصيلهما، فإنه مباشر لها تارة، ومستنيب فيها أخرى، فلا يضل إلى استنابه الكفاءة إلا أن يكون منهم، كما لا يقدر على المباشرة إذا قصر عنهم، وعلى هذا الشرط مدار الوزارة وبه تنتظم السياسة، حتى أن الملك المأمون رضى الله عنه كتب فى اختيار وزير: انى

(١) الماوردى فى "قوانين الوزارة" ص ٢٦ وما بعدها.

التمس لأمرى رجلاً جامعاً لخصال الخير، ذا عفة فى خلانقه. رستقامة فى طرائقه، قد هذبتة الآداب، وأحكمتة التجارب، أن ائتمن على الأسرار قام بهاء، وأن قلد مهمات الأمور نهض فيها، يسكنه الحلم وينطقه العلي. وتدسب اللحظة، وتعينه اللحمة، له صولة الأمراء، وأناة الحكماء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، أن أحسن إليه شكر، وان ابتلى بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده. يسترق قلوب الرجال بخلافة لسانه، وحسن بيانه.

أما مدى سلطات وزير التفويض فيجعلها الماوردى فى قوله:

”ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه، وأن يقلد الحكام، كما يجوز ذلك للإمام، لأن شروط الحكم فيه متميزة، ويجوز أن ينظر إلى المظالم ويستتنب فيها، لأن شروط المظالم فيه معتبرة، ويجوز أن يتولى الجهاد بنفسه وان يقلد من يتولاه، لأن شروط الحرب فيه معتبرة، ويجوز أن يباشر الأمور التى دبرها، وأن يستتنب فى تنفيذها لأن شروط الرأى والتدبير فيه معتبرة“.

ويخلص الماوردى من هذا النص على الأمور التى لا يجوز لوزير التفويض ممارستها فيقول:

”وكل ما صح من الإمام صح من الوزير، إلا ثلاثة أشياء:

أحدهما: ولاية العهد، فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى، وليس ذلك للوزير.

الثانى: أن للإمام أن يستعفى الأمة من الإمامة، وليس ذلك للوزير.

الثالث: أن للأمام أن يعزل من قلده الوزير، وليس للوزير أن يعزل من قلده

الإمام، وما سوى هذه الثلاثة فحكم التفويض إليه يقتضى جواز فعله“

وينتهى الماوردى من هذا البسط إثبات الفصل بين وزارتى التفويض والتنفيذ

فيقول:

”ويجوز للخليفة أن يقلد وزير تنفيذ على اجتماع وانفراد، ولا يجوز أن يقلد وزيرى تفويض على اجتماع، لعموم ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين، لأنهما ربما تعارضا فى العقد ولايتهما، كما لا يجوز تقليد إمامين، لأنهما ربما تعارضا فى العقد واحل والتقليد والعزل. وقد قال الله تعالى ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا﴾^(١).

وعلى هذا تتضح لنا الفروق بين وزارتى التنفيذ والتفويض فيما يأتى:

١ - إنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم، وليس ذلك من حق وزير التنفيذ.

٢ - إنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد برأيه فى تقليد الولاية ولاياتهم وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٣ - إنه يحق لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ووضع الخطط العسكرية وليس ذلك لوزير التنفيذ.

٤ - إنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى بيت المال بالقبض والدفع، بينما ليس ذلك لوزير التنفيذ^(٢).

ومجمل القول فى نهاية هذا العرض أن وزارة التفويض أدق موقفاً وأزيد شروطاً، وأن مجال الاختصاص فيها أوسع.

(١) سورة الأنبياء الآيتان: ٢١ - ٢٢.

(٢) أبو يعلى فى "أحكامه" ص ١٦.

الوزارة فى الأندلس

بدأ هذا التقليد الوزارى يظهر فى الأندلس فى بداية العهد الأموى وذلك فى صورة ما سُمى لدى الأمراء باسم "الحاجب" وأحياناً كان يدعى بالوزير، كما كان يخلع عليه لقب "ذو الوزارتين"، ولم يكن اسم الحاجب يعنى فى الأندلس ما كان يعنيه فى المشرق لدى الدولتين الأموية والعباسية من حجب السلطان عن الناس، وإنما كان يتولى الحاجب فى تلك المنطقة من الغرب الإسلامى ما كان يتولاه الوزير فى المشرق الإسلامى يومئذ، بل كان يمتاز عنه برئاسة مجلس الوزراء التى تتولى الإشراف على الأمور بالبلاد، وقد اتضح هذا الإشراف الوزارى على المجلس عندما توزعت الاختصاصات على الوزراء، نتيجة نزوح الدولة، وما جد عليها من مشكلات وواكبتها من تطورات، وكان أمر اختيار هذا المشرف على الوزراء موكول إلى الخليفة نفسه، يقول ابن خلدون فى هذا الشأن:

"أما دولة بنى أمية فى الأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفراداً لكل صنف وزيراً. فجعلوا لحسيان المال وزيراً، ولترسيل وزيراً، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً، وللنظر فى أحوال الثغور وزيراً، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة، وينفذون أمر السلطان هناك، كل فيما جعل له، وافرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم، ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم الحاجب^(١)، فهذا التنظيم يشبه إلى حد كبير - الهيئة الإدارية فى وقتنا الحاضر.

أما اختصاص هذا الحاجب فكان شاملاً للشؤون المدنية والعسكرية، على نحو ما كان يختص به الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر فى أخريات دولة الأمويين الأندلسية.

(١) المقدمة لابن خلدون - ص ٢٠٨.

ففى عهد خليفة أموى وهو هشام المؤيد بالله (٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ) اضطلع الأمراء للقيام بمهام الملك، حيث هذا الخليفة كان ما يزال فتى، ميالاً بحكم سنه إلى اللهو واللعب بين الحصيان وآلات الطرب، فشجع الحاجب المنصور هذه السيول لذي هشام. وقام بالحجر عليه، ولم يسمح لأحد غيره برؤيته أو مخاطبته، "ولما كان هشام مندرجاً فى طى كفالة الحاجب المنصور بحيث لا ينسب إليه تدبير، ولا يرجع إليه من الأمور فى قليل أو كثير، إذ كان فى نفسه واصل تركيبه، مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات، ولعب الصبيان والبينات، وفى الكبير بمجالسه النساء ومحادثة الإماء، يحرص بزعمه على اكتساب البركات، والآلات المنسوبات" ولكى يستكمل ابن أبى عامر نفوذه فى الدولة دون مناوىء أو منافس فقد لجأ إلى نكبة حاجب الدولة جعفر بن عثمان المصحفى، وذلك بأن أوعز إلى الخليفة أن يصدر أمراً بذلك، فقبض عليه فى ١٣ شعبان ٣٦٧هـ، كما قبض على ولده وأهله، وصودرت أمواله وأموالهم، واستمر المصحفى فى سجن الزهراء بقرطبة حتى مات عام ٣٧٢هـ (٩٨٢م) وتكهن الناس حول طريقة موته، فمنهم من قال إنه مات خنقاً فى مطبقة، ومنهم من قال إنه دس له السم فى شراب قدم إليه.

وهكذا سيطر المنصور محمد بن على على مقاليد الدولة بعد أن تلخص من المصحفى وأنصاره، وتمكن فى النهاية من اتخاذ سمة الملك والتسمى بالحاجب المنصور، وخاصة بعد أن نجح على الصعيد الحربى فى تحقيق الانتصارات الباهرة على الأسبان. ويعتبر هذا الحدث فى تاريخ الحجابة من أقوى الاحداث التى لم تتح إلا للبرامكة فى الشرق، ولكن الحاجب المنصور تمكن بمثل هذا الدهاء وقوة الشخصية ومواتاة الظروف ان تطول فترى سلطته، وأن يخلص الأمر فى النهاية إلى تأسيسه ولو بطريق غير مباشر - الدولة العامرية (٣٦٦هـ - ٣٩٩هـ / ٩٧٦م - ١٠٠٩م) وهذه قمة أحداث الوزارة والحجابة فى الأندلس،

بحيث لم يجر على مسرح السياسة الأندلسية فى هذا المجال مثل هذا الذى كان من أمر المنصور محمد بن على بن أبى عامر.

أما لقب "ذو الوزارتين" فكان يعنى الجمع بين خطتى السيف والقلم، وكان عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ - ٣٥٠هـ) أول من استعمل هذا اللقب فى الأندلس، متأسيا فى هذا ببنى العباس، فقد لقب هذا الخليفة الأموى وزيره أحمد بن عبد الملك بن شهيد بهذا اللقب، واجزل له راتبه، وكان يتولى هذا الوزير بعض المهام التى كان يتولاها الحاجب عادة، كما أسندت إليه قيادة الجيش، بالإضافة إلى رئاسة ديوان الكتابة، تماماً كما كان للشأن للوزير لسان الدين ابن الخطيب، فى عصر أبى الحجاج يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، الذى ألقى إليه بخاتمه وقلده قيادة الجيش، فكان "الممثل الشخصى للملك بتعييننا الحاضر، الأمر الذى استحق عليه أن يخلع عليه نفس اللقب "ذو الوزارتين".

راتب الوزير:

يتحدث المؤرخون عن ضخامة مرتب الوزير فى العصور الوسطى الإسلامية، وإن ما كان مقرراً له لم يقتصر على شخصه، وإنما كان مثل ذلك بنسب معينة يشمل أولاده وأحياناً أخوته، وذلك بالإضافة إلى الخلع والهدايا والإقطاعات فى المناسبات المختلفة ولا سيما الدينية، فعلى سبيل المثال يروى أن وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمى (يعقوب بن كلس) كان يتقاضى مائة ألف دينار من الذهب سنوياً، وأن ثروته بلغت ما قدر بأربعة آلاف دينار من الجواهر وخمسمائة ألف دينار من المصوغات، بالإضافة إلى أربعة آلاف من المالك كان قد اتخذهم من ماله الخاص، وهذا يعطينا صورة واضحة عن السبخ الذى كان سائداً لدى الفاطميين من ناحية، وعن مقدار ما كان يتقاضاه الوزراء يومئذ من رواتب ومخصصات وما كانوا يتوفرون عليه من ثروات طائلة.

كذلك كان راتب يحيى بن هبيرة وزير الخليفة المقتفى العباس (٥٣٠هـ - ٥٥٥هـ) مائة ألف دينار من الذهب على مدار العام.

أما الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي والى عكا فقد كان راتبه لا يقل ضخامة عن نظرائه من وزراء الدول الإسلامية، ولا أدل على ذلك من ثروته فى قصوره التى كان يتوفر عليها عام ٥٠١هـ، والتى بلغت ٦٠٠٠ دينار من الذهب، ومن حصيلة ثروته الحيوانية ما يقدر بأربعين ألف دينار من الذهب سنوياً وغير ذلك^(١).

وحول المؤلف الوزير ابن الخطيب (المؤلف) فقد تحدث التاريخ الأندلسى والمغربى بأفاضة حول ما كان يتوفر عليه من القصور وما كان يكتنيه فيها فى كل من غرناطة وسلا، وبالإضافة إلى الضياع والاقطاعات فى فحص غرناطة خاصة، ومنها حديقته التى كانت أثيرة لديه، حيث تضم قصراً خاصاً به فى ضاحية "عين الدمع" من أحياء العاصمة الأندلسية.

(١) د. حسن إبراهيم فى "النظم الإسلامية" ص ١٥٤ - ١٥٥.

كتاب
الإشارة إلى أدب الوزارة

(٥٢ - ب) الإشارة إلى أدب الوزارة

أما بعد حمد الله الذى جبل ملكه أن يؤازره الوزير، وعن أمره أن يدبره المدبر أو يؤيده الظهير، والاستعانة على الوظائف التى يضطر إليها، ويعتمد عليها، فهو الولى النصير.

والصلاة على سيدنا محمد، الذى له القدر الرفيع، والفخر الكبير، والرضا على أله وعشيرته، فحبذا الآل والعشير.

فإن من دعا الله أيها الوزير السعيد بيطفر عليك لباسها، وعزة يصدق لك قياسها، وأيام يروض لك شماسها، ويدفع - بيمن نقيبتهك - باسها، فأنا دعا للدولة بتأييدها، وللملة بتمهيدها، وللملكة بتجديدها. فقد ظهر - من عنايته بك - اختياري، ومن حسن أثره - فى نصرك - ايثارى. وهو الكفيل لك بالمزيد من آلائه، وموصل نعمائه.

وأنى لما رأيت برك دينا يجب على قضاؤه، ولا يجمل بى الغاؤه. وتخيرت لك فى الهدايا ما يملأ اليد، ويصاحب الأمد، وينجد العقب والولد، فلم أجد أجدى من هدية الحكمة، التى من أوتيتها فقد أوتى خيراً كثيراً، ومن أهل لرتبتها السامية فقد احل محلاً أثيراً^(١)، والوصاة التى تنفك من حيث كنت وزيراً، والمواظبة التى تفيدك تنبيهها من الغفلة وتذكيراً، فأخترت لك وضعاً غريباً، وغرضاً قريباً، أن لقيت به ما جمع من أخلاقك قولك وألانه، وأنهج لك الصواب وأبانه، جانحاً إلى الاختصار، عادلاً عن الإكثار، منسوباً إلى بعض الحيوان، على عادة الأول ممن صنف فى السياسة من قبلى، أو ذهب لما ذهب

(١) فى ك : كثيراً، وهى هنا أنسب وأصوب.

(٥٣ : ب) إليه فى عُلى، فقلت، وبالله العون والقوة، ومنه نلمس السعادة المرجوة:

حكى من يكلف برعى الآداب السوايم، ويعنى باستنزال الحكم الحواميم، ويقيد المعانى الشاردة على ألسنة البهائم، أن نمرا يكنى أبا فروة، ويعرف بالمرقط، كانه بالنجوم منقط. شتر الكفين، بعيد ما بين العينين. كأن ذنابه ذؤابة كودى أو جديلة مركب. وكان المجرة اورده غديرها، والثريا نثرت عليه دنانيرها. عظيم الوثوب والطفور، حديد الناب والاظفور، فى نجد وغور، وكرى جور وكور، وجرم ثوبه سلاح سنور. استوزره ملك الوحوش، وقاده تدبير الملوك وعرض الجيوش. فحل من ذاك الأسد، محل الروح من الجسد. وكفاه ما وراء بابه، ودافع الأعداء عن جنابه، ووفر من جبايته، وأجرى رسوم عزه وأبايته. وأخلص له عقيدة نصحه، وتبرأ من شين الغش وقبحه. حتى عممت الهبة وخصت، وشرقت الأعداء وغصت. وعرفت الوحوش أقدارها، وألفت السياسة مدارها، وأمنت السبل والمسالك، وخاف الملوك سطوة المالك. وحسنت الأخبار عن سريرته، وشهدت - بالعدل السنى - جيرته، لما اسر وأستسر. فأذكر من قوته ما عرف، وقارب من مدى العمر الطرف، فمال من أجله وانحرف، وكع عن الملاذ وانصرف. فأصبح متنه هزيلا، وجسمه ضئيلا، ونشاطه قليلا، ورأى عبء الوزارة ثقيلا، أن الحق أقوم قيلا.

دخل على الأسد خلوة مشورته، وخرج له صورته، وقال:

أيها الملك السعيد، عشت ما بدا لك، وحفظ ميزان الطابع عليك اعتدالك. ولا زلت فى هوب السطا، بعيد الخطا، قائما فى جهاد الطعة من القطا. ووهن من عبك العظم، وضعف الافتراس وساء الهضم، وكاد ينتشر النظم. وبأن فى آلة خدمتك الكلال، واستوفى الهرم والاضمحلال وأربى بمالك عن تقصير لجنبه - ضعفى، وان عظم - لفراق سدتك - لهفى فسوغنى التفريغ لمعادى، والنظر فى بعد

ليرقى وقله زادي ، واستكف من يقوم بهمتك ، ويبوء بعبء خدمتك . فما على استحثات الأجل من قرار ، وما بعد العشية من عرار^(١) .

من عاش أخلفت الأيام جدته ، ، وخانه ثقناه السمع والبصر
وقد علم الذي بين النواصي ، وعلمه المحيط بالأداني والأقاصي ، وستره قد
شمل المطيع والعاصي ، أنني ما خنت أمانته ، ولا آليت جهدا في أعانتك . ولا
تعمدت جلب ضرر ، ولا خلطت حلو النصيحة بمر ، ولا ستفسدت " ٥٣ : ب " لك
قلب حر ولا استأثرت لك بمال ، ولا كنت يوما لصدك بممال ، ولا تلقيت سهما
بإهمال ، ولا ضاق - لي عن خلقك - درع احتمال ، ولا أعملت - في غير رضاك و
طاعتك - حركة يمين أو شمال^(٢) .

فقال له الأسد :

أيها الوزير الصالح ، حسن جزاؤك ، كما وضع للصدق اعتدادك ، ولحققت
بالعوالم الشريفة مقوماتك المفضلة وأجزاؤك . قلت صوابا ، واستوجبت منا جزاء
ومن ودنا ثوابا . ولو كان شيئا في وسع ملكنا جيره ، لبد لنا لك العزيز وهان
علينا أمره ، لكن التحليل على عالم التركيب محتوم ، والمصير معلوم ، والفراق
ذات الألقاب والرسوم .

اسمع ، فقد أسمعتك الصوت إن لم تبادر فهو الموت
قل كلما شئت ، وعش ناعما آخر هذا كله الموت

وقد أمرنا بعهدك لولدك ، ونقلنا الوزارة من يدي إلى يدك ، ورجونا ألا يقدم
حسن مقصدك ، من سعة نفسك ، وسلسيل جسدك . وكان للنمر جرو قد استكمل
سن الوقوف ، واتصف بالانقطاع عن الحكمة والعكوف ، مختار الأمانة والفراسة ،

(١) إشارة إلى قول الشاعر :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

(٢) في ك : وشمال ، ففي نسختنا الصواب .

صادقة فيها النجابة ومخايل الفراسة، كلف بالنظر والدراسة. كريم الطبع، رحيب الضرع. طيب الأصل سامى الفرع لا نوذه العضلات، ولا توافق فطنته المشكلات، ولا تجاذبة الشهوات. ولا بطرق كماله الهفوات. حان على الرعية، حفظ لشروط السياسة المرعية. قد افرغ فى قالب الكمال جوهره، وتطابق مخبره ومظهره. وتفتق عن كمال العفاف وحسن الأوصاف زهده. فاتخذ الملك صنيعا فنفض له الأطراف، واستقدم الأشراف، واستدعى فوقه الجهاد، وطوايف النساك والزهاد. واحتفل الوليمة، وأفاض النعم العميمة. واستحضر النمر وقد تحلى بحلية متماسك، وبدل فروة الوزير بفروة الناسك. فأعلق فى المجتمع برضاه عن سيرته، واعترف بنصح جيبه وفضل سريرته، وأعلن بستويغ أوبته، وقرب القربان بين يدي توبته. وحفت به أرباب الديانة ونساكها، وقومة الشريعة الذين فى أيديهم ملاكها. فرفعوه على رؤوسهم وأكتافهم، حذو معتادهم. وجهروا حوله بصحفهم المحفوظة، وأدعيتهم المفوظة، ونسكهم المحدودة المحفوظة. حتى أتوا هيكل العبادة، ومحل أهل النسك والزهادة، وخدمة الكواكب السادة، والمتشوفين إلى السعادة، والمنسلمين عن كدرات سوء العادة، وقصده ولده سيفتح بدعائه العمل، ويسترنى بوصاياه الأمل.

فلما فرغ النمر من استقبال محرابه (٥٤ : ب)، وقد تجرد من العلايق تجرد السيف من قرابه، حن الولد لولديه، ثم سجد بين يديه، وقال بعدما أطرق، وطرفه من الرقة قد اغرورق، ونور السعادة فوق جبينه قد أشرق:

أيها المولى الذى قرنت بحق البارى حقوقه، فما فى المنعمين من يفوقه، أوضحت لعله ايجادى مذهباً، وكنت لنفسى الجزئية باتصال العقل الكلى سبباً، ثم كلفت وكيفت، وعند تقاصر الطباع وفيت، ثم داويت من مرض الجهل وشفيت، وحملت على أفضل العادة، وأظفرت اليد بعروة السعادة وأنا - إلى وصلتك اليوم - فقير، ورأى فى جانب رأيك - حقير. ودعاؤك لى لى ونصير، ولحظك فى تصرفاتى القاصرة نافذ بصير.

فأقبل عليه بوجه بيضه الشيب والنسك، وأخلاق تزوع من أنفاسها المسك،
وتبسم تبسم الذهب الأبريز أحاطه السبك. قال: يا ولدى الذى رجوته لخلف
شخصى، وتتميم نقصى، ولعل الحكمة عنى، وستر الجزء الأرضى منى. طالما
ابتهلت إلى الله فى سدادك بعد تخير وعاء ولادك، واستدعييت حكماء الهياكل
المقدسة لإرشادك فلو استغنى أحد عن موعظة نوقر من نوم. او سدا. راي
يعصم من لوم أو استشعار مناصحة تجد ثناء قوم، أو استعراض تجربة تغلى
من سوم، لكنت بذلك خليقا، ومن أسر الافتقار طليقا، لكن الإنسان لما يريه ذا
فاقة، ومتصف بافتقار إلى غيره واضاقة، وليس بالانفراد مع كونه مدينا من
طاقة، ومتى ظن بنفسه غير ذلك فهى حماقة، وبحسب جلالة ما يحاوله أو
يحاوره، يكون افتقاره لمن يعارضه ويشاوره. وقد خرجت من الوزارة إلى منزلة لا
تطمئن بمن نبذ طاعته الحق وتقواه، ورضى عن نفسه واتبع هواه. فإن قهرت
من الشهوة المردية عدوك، وبلغت عن ملكة الهوى مرجوك، وألفت قرارك فى
ظل الحكمة رهدرك، تذلل لك اقتضاؤها، وتمنى عطاؤك. وطاب فيها خبرك،
وحسن عليها أترك، والله لا يدرك، وإلا فلسيت بأول من هوى ورمى، من بعدما
شوى.

وأنا موصيك، والله يبعذك من الخطل، ويقصيك ويبين لك قدر هذه الرتبة
بين الأقدار، ثم جالب بعض شروط الاختيار، ثم حاصر بحسب من الإمكان،
فى ستة من الأركان، واسأل العالم يعافينى إلى سداد فعلك، وقوله الغنى عن
قدرتك وصولك، ويجمع لك مواهب توفيقه التى لا تحصى بالعد، ولا تنال
بالعد، ما يتكفل برضاه عنك، حتى تحب ما أحبه لك، وتكره ما أكرهه منك،
وأن يختم مدتك المتناهية بأسعد ما انتهت إليه آمالك، وتناول نحوه سؤالك،
وهو حسبى، ونعم الوكيل.

باب

بيان قدر رتبة الوزارة فى الأقدار

وبعض شروط الاختيار

(٥٤ : ب) اعلم يا ولدى، هذه الرتبة لمن فهم وعقل مشتقة من الوزر، وهو الثقل، لانها تحمل من عبء الملك وثقله ماتعجز الجبال عن حمله. وهى الآلة التى بها يعمل، وبحسب تباينها بتباين الانقى والأكمل، وعصاه التى بها يمشى، ويحتطب ويحشى، ويلتقم ويمشى، ويجمع ويعشى. ومخلبه الذى به يرق الفرخ، ويحرس العش، ومنخله الذى يعرف به من يناصر ومن يغش، ومرآته التى يرى بها محاسن وجهه وعيوبه، وسمعه الذى يتوصل تجاهه لمعرفة الأشخاص المحجوبة. وإذا فسد الملك وصلح الوزير، ربما نفعت النياحة، واستقام التدبير، وصالح الأمر بعكس هذه الحال، محسوب من المحال، لأنه الواسطة القريبة، ونكتة السياسة الغربية. موقعه من الملك موقع اليمين من الجسد، التين فى القبض والبسط عليهما يعتمد.

قالوا: الملك طيب والرعية مرضى، والوزير تعرض عليه شكايتهم عرضاً، والنجاح مرتبط بسداد عقله، وصحة نقله. فإذا اختل السفير بطل التدبير، وإذا تقرر وجوب الأمانة، ونصبها، وعقدها، وغضبها، وكانت صورتها إلى الوزارة هذه الضرورة، ومنزلتها منها هذه الصورة، وهى فى الواجب شروط، ولا يستقيم له بغيرها ضابط، كيف لا يكون قدرها خطيراً، ومحلها أثيراً؟! وقول النبى الذى اصطفاه الله برسالته وكلامه، واختصه بخصيصى اكرامه، مع كونه معصوما بعصمة ربه، عتيا بدفاعه، متانسا بقربه ﴿ وَأَجْعَل لِّى وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِى ﴾ ﴿ هُرُّوْنَ أَخِي ﴾ ﴿ أَشَدُّ بِهِمْ أَزْرِي ﴾ ﴿ وَأَشْرِكُهُ فِىْ أَمْرِى ﴾ (١) دليل على محلها من شدة المكاييد، إلى غير ذلك من الآثار المجلوة، والمحاسن المتلوة، والأشعار بأن المنصب منصب الأخوة.

(١) سورة طه الآيات: ٢٩-٣٢.

فصل

وأعلم أن الأولين من حكماء يونان، في سالف الزمان، كانوا يعرفون فضل هذه المهنة (بين) المهن، ويجعلون تعظيمها من الشرايع والسنن، ويتحققون بجباؤها في المعادن الشريفة، والبيوت العتيقة، والاحساب المنيعة. ويختبرون نصب المواد في أبناء أهل الترشيح، ويعنون فيها بالنظر الصحيح، فمن قامت على صلاحه الشواهد، وشهد بأهليته الموالد، عين في الأرزاق قسمه، وأثبت عند الثقاف اسمه، ثم يؤخذون (٥٥ : ب) بالتعليم والدراسة، ويتعاهدون بالآداب تعاهد الغراسة، ثم يعرضون عند الترعير على أهل الفراسة، فمتى تأكد القول لديه ورجح، وبان في أحدهم الفضل ووضوح، خرج وكرب، ومرن وجرب، ثم استعمل وقرب.

فصل

وكان الوزراء يختارون من الجوارى للمباضعة، من ظهر منها فضل التمييز، وأخلصها الاختيار خلوص الذهب الأبريز، ولا يغشوهن في سكر مسقط، ولا فرج مفرط، ولا كسل مقعد، ولا حزن مفسد، ولا غضب مبرق مرعد. وإذا هم بطلب الولد أستفتى الكاهن في اختيار الوقت الراهن، فلا يطلق له ذلك إلا في الأوقات المختارة، والنصب الخليفة بتلك الأثارة، وبعد إصلاح القمر والشمس، والكواكب الخمس، واستحضار الهيئات النابهة، والأشكال المتناهية المتشابهة، وتقريب القرابين بين يدي الآلهة، ثم يلقي الجاربه، وكلاهما يقول قولاً منقولاً عن الصحف الموصوفة، والكتب المقدسة المعروفة، معناه: يا من قصرت الأبواب عن كنهه، وعنت الوجوه لوجهه، قد اجتمعنا على مزج مواد لا نعرف ما تحدثه منها، ولا ما تظهره عنها. وتلقينا توفيقك من سعيينا بمقدار المجهودات، وأنت ملاذ الوجود، وفيض الجود، وليس تضرعنا لك بالمسألة، وبابتهالنا برحمتك المستنزلة، تنبئها لاقدارك المصيبة السداد، الجارية بمصالح العباد، إنما هو بحساب ما نحرز به فضل الرغبة إنيك، والسؤال لما لديك، ونحن بحسن اختيارنا أوثق بآرائنا، وقضاؤك السابق من ورائنا، فلك الحمد على قضائك، والشكر على آلائك.

فصل

وكان الوزير فيهم يشترط فيه أن يكون قديم النعمة، بعيد المهمة، مكين الراحة والرحمة، كريم الغيب، نقي الجيب، مسدد السهم، ثاقب الفهم، واثباً عند الفرصة، واصفاً للقصة، مريحاً في العصة، موفور الأمانة، أصيل الديانة، قاهراً بالهدى، مستشعر العفة، معتدل الكفة، حذراً من النقد، صحيح العقد، راعياً للمهل، نشيطاً لعمل، واصلاً للذمم، شاكراً للنعم، خبيراً بسير الأمم. ذا حنكة بالدخل والخرج، عفيف اللسان والفرج، غير مغتاب ولا عيابه، ولا ملق ولا هيابه، مجتزئاً بالبلاغ، مشتغلاً عند الفراغ. مدثراً للصدق، صادقاً بالحق^(١) حافظاً للأسرار، مدثراً للأبرار، مبايناً (٥٥: ب) بطبعه لخلق الأشرار، وقد فاق قدر هذه المرتبة بين الأقدار، وأعطى وزانها - والحمد لله حقه - عند الاعتبار.

ونحن نذكر بعد أركان الوصاة، ونفرغ لذكر حكمها المحصاة وفصولها المستقصاة.

(١) في ك : صاعداً بالحق، وكلاهما مناسب للمعنى.

الركن الأول

وهو العقد الذى عليه المعول، فيما يستشعره الوزير بينه وبين نفسه، ويجعله مجيراً له فى يومه وأمسه

وأعلم، أن الملكة البشرية، الخليفة بالافتقار الحرية - لما كان راعيها مركبا من اضرار متغايرة، وأركان متفاسدة متضائرة، بجذبه كل منها إلى طبعه، بين أخذ برجله، ورافع بضبعه، لم يكمل حراسة ما وكل إليه بنفسه، ولا وفعت بضم منتثرها آلات حسنه، فاحتاج إلى وزير من جنسه، ينوب فيما ناب عن شخصه، ويضطلع بتميم نقصه، وبتيقظ سهوه، ويجد عند لهوه. فيحتاج من اتصف بهذه الصفة إلى كمال فى الفضل (٥٦: أ) وحاجة فى المعرفة، يعدل ما عاض الملك من أمور ملكه، ويوفى ما عجز من نظم سلكه، حتى تبرز الملكة فى أتم صورتها، وتبلغ الكمال الأخير بمقتضى ضرورتها. وتقوى الله - عز وجل - أولى ما قدمته، ثم تدليل نيتك لمن خدمته، ومقابلة ثقته بك بالوفاء الذى سددت أن الزمته، وحمل الخاصة والعامة على حكم الشرع، فإن لم تبين الأمر على ذلك هدمته.. وأفضل ما وهب لك، فيما قلدته من قلادة، وعودته من عادة، سيادة شمول الأمن وعموم الرضا، وظهور الأمانة، والصدق فى كل غرض مقتضى. وحسن النية، وطهارة الطوية. ورعاية الإحسان، وإفاضة الرأفة فى عالم الإنسان، وزيادة الكفاية بحسب الإمكان.

وأعلم أنه من لا يضبط نفسه - وهى واحدة - لا يضبط أمر الكثير من الناس، على تباين الأغراض وتعدد الأجناس. فأربأ بنفسك عما تجره الشهوات من النقص، وازجرها عن كلب الحرص. وألن جانبك لمن ظهر كماله (٥٦: ب) وقصرت عنه حاله.

وأعلم أن بقاء النعم على كتفك مقرون ببقائها بين يديك، وجريان الأمور على مذهبك، بحسب استقامتها بسببك، وقل أن يتهياً فى هذا العالم عمل عار من الملامة، أو سالم من

التجوز كل السلامة، فليكن خطوك فى الإحسان للإنسان، لا فى الإساءة بالفعل واللسان، فقليل الخير ربما تخارقت ثمرته، وآتت أكلها ضعفين شجرته. وإذا أهممت بزوال نعمة عن جان، فأذكر كم تنال تلك النعمة من مكان، وكم فيها لمن لا يستوجب عقابا، ولاكشف عن سر نقابا. وقد قالوا: الأشراف تعاقب بالهجران، ولا تعاقب بالحرمان. وبما قالت جرى ركن إليها ولم تعلم، تعاقب ثم تأوه لفقد معروفها وتآلم.

فأجعل هذه الذرائع شفعا فى بقائها، ودواعى لأجرائها، يتكفل لك بارتك باحراز السلامة، ورفع الملامة، والمثوبة فى القيامة. واستعمل التواضع فى هبوب روحك، وتخفف عن الجبهة والنجه^(١) بتعريضك وتصريحك، فرىما خشن جواب لا يغسل طبعه، ولا يوجد من يرفعه، ولا يزيله عقاب (٥٧: أ) قاله ولا يعرفه. سيما فىمن استحق الموت، أو تيقن الفوت.

واصبر على ذوى الفاقة، وأهل الإضافة، بجهد الطاقة، وأياك والضرر، فإنه يكدر الصفو، ويذهب العفو، ويبقى الفتنة الشنيعة، ويفسد الصنيعة، وقد ركل أبو عمار الوزير رجلا برجله، فرفع إلى الخليفة من أجله:

قل للخليفة يا ابن عم محمد أرفع وزيرك أنه ركال

أشكله عن ركل الرجال وأن ترد ما لا فعند وزيرك الأموال

فتركها مثلا يذكر، وفتنة تنكر.

فصل

وإذا باشرت عملاً فلتتبع أصوله، دون فضوله، وأبوابه دون فضوله، ولا تشتغل بفروعه المتشعبة عن أصوله، ثم اصعد بعد إليها، واعطف عليها. ولا تغن بتفصيله عن جملته، فيضيع سائرته قبل أنات الوقت ومهلته، ولا ترفعن عملا يخصه. وأقل ما يحلق من ازدحام الأعمال، تطرق الفساد إليها والاختلال. عند الاستحاثات والاستعجال، وضيق

(١) النجعة: المسارة بما فى الفواد من الأسرار أو العواطف، والاسم منه: النجوى.

المجال، وتهيب^(١) العمل مطيل للزمان، منب عن ضيق الجنان (٥٧: ب) ولا تركن في
الاستخدام إلى شفاعة، غير نفاة، ما لم تكن شفاة الكفاية، والأمانة والرعاية.

وأعلم بأن من ظهر حسن صبره على شدائده، في حوادث الدهر ومكائده، فالصبر قدر
مشترك، فيمن أخذ أو ترك، والنفس لا تنفك عن معترك.

وأعلم أن الراحة عند الحاجة إلى الحركة، تهدي التعب الضروري، لمن أغفله فيها
وتركه، ولا تقلن شيئاً تقلدته، بعدما حسبت من وظائفك وعددته، فيظن بك من الخروج
عن طبعك الذي جبأت عليه، بمقدار ما خرج إليه. ولا تحتجب عن الناس يفسد
بعضك، ويضعف من السياسة فرضك، فتكتمل النصحية سماؤك وأرضك. ولله در القائل:

كم من فتى تحمد أخلاقه وتسكن الأحرار في ذمته

قد كثر الحاب أعداءه وتسلبت الذم على نعمته

ولا يعجبنا ما بطن من مساويك، ولتكن معرفتك (٥٨: أ) بغيب نفسك، اوفق عندك
من مدح أبناء جنسك. وانقبض عن العامة ومن يلابسها، وامتنع من التكبر بمن
يجانسها، ففي طباعها اهانة المتلبس بأشباعها، وانقص من اتصل برعاعها.

وأعلم، بأن إحسانك للحر تحركه على المكافأة المختلفة، وإحسانك إلى الوغد يحمله
على معاودة المسألة، فضع إحسانك ولسانك حيث وضعها الرأي الصريح، والاختيار
الصحيح.

هذه - أرشدك الله - "نقطة من يم، وتأفه من جم"^(٢) وحصاة من كبير، وقليل من
كثير. والنبيل من قاس الشيء بنظيره، واستدل على الكبير بيسيره. وحسبنا الله ونعم
الوكيل.

(١) تهيب العمل، إفساده.

(٢) ما بين علامتي التنصيص اسم رسالة للمؤلف، تناولت مختارات من إنتاج أستاذه رئيس ديوان
الإنشاء المعاصر الشيخ أبو الحسن علي بن الجياب (٦٧٣هـ - ١٢٧٣م) - ٧٤٩هـ -
١٣٤٩م) في دولة السلطان يوسف الأول ابن الأحمر (٧٣٣هـ - ١٣٣٣م) - ٧٥٥هـ -
١٣٥٥م.

الركن الثاني

فما يستشعره الوزير مع الملك ليامن عادية الأمر المرتبك

وإذا خدمت ملكاً زاد رأيك على رأيه، وفضل سعيك في التدبير حسن سعيه - فأره الاستهانة بمزيدك، واقصر من أشرف جيدك، واظهر التعجب مما فضل عليك به، وسر من الحزم على مذهبه، ولا تتبجح بتجاوز ما لأهل طبقتك، وإذا أنفقت عند الكفاية (٥٨ : ب) فاقتصد في نفقتك، فإنه لا يحسن منه موقع قولك أو عملك، ويرى أن تغررك به أكثر من تحملك، فيشرع في كسره، وجرك إلى قسره^(١).

وإذا تعارض عندك العجز في مروءتك وديانتك، وكفايتك وأمانتك، فتنزه الكفاية عنده عما يشين، وأرض بالنقص في المروءة لا في الدين، فهو عليه أسهل، وفرق ما بين الحالين لا يجهل. وإياك أن يأنس منك فيهما إخلالا، أو يرى منك لهما إهمالا. وأحذر الأضرار لديه بالناس في سبيل النصيحة، أو التغيير عليه كما توفر العامة على أنفسها الشحيحة. وأبتع له قلوب الخلق، بمسامحتهم فيما قصروا له فيه عن سير الحق، فانك تسترخص له بذلك تملك الأحرار، وتحسين الآثار. واترك لشؤونه الخاصة وشؤونك. وحرك من أحسنت إليه على شكره دونك، ليقف على أن سعيك لا لنفسك، في يومك وأمسك، ولا حظ لك فيما تمسك.

وأياك أن تحيا بمثل تحيته، أو تلقى مثل ما يلقي به عند رؤيته. أو ترفع بالسلام (٥٩: أ) عليه الأصوات، أو يسبق الناس بابك قبل باب الملك بالغدوات، فكم جلب ذلك من الآفات، وغير من الصفات، وإذا دعاك إلى لهوه أو شرابه، وخصك بمزيد اقترابه - فليكن الأعظام على الالتذاذ غالبا، والفكر للحذر مراقبا، واجعل التحرز منه في أوقات انبساطه إليك واجبا. ولا تستهن من ذلك ما ليس بهين، وإياك أن تلم بك أسرة وجه أو نظره عين. واجتنب لباس ثوبه، وركوب مركبه، واستخدام جميع ما يتزين به، فمن

(١) قسره: قهره.

خدم السلطان - لنباهة الذكر ولباس العزة - لم يضره تقصير الرياش وعود البزة. ون
صحه أذة والترف، مسلوب الشرف.

فصل

وإذا خصك بمشورته، وطلب رأيك لضرورته - فلا تخاطبه مخاطبة المرشد لمن
استهداه، وأره حاجتك لما ابداه. وإذا اعترف بخطأ يواقعه في بعض أنظاره، أو أعلن
بسوء اختياره - فأجل فكرك في التماس أعذاره وتوجيه عاره. واحتل بفطنتك في رماه،
(٥٠: ب) وأحذر بان توافقه على ذمه. وذلك نيتك كلامك، واصرف إلى ترك التجاوز كل
اهتمامك، فالكلام إذا طابق نية المتكلم حرك نية السامع، وإذا صدر عن القلب أخذ من
القلب المجامع. وإذا توجه إليك عتبه لشبهه في أمرك عرضت، أو ظنه تعرضت - فلا
تقبل رضاه عنك تمويها، ما لم تقم حجتك فيها. ولا تسام إلا لاحة، واره أنك لا تؤثر
الحياة دون براءة الساحة، حتى ترتفع الظنة رأساً، ولا تحسن من تبعة الأحنة بأساً،
ويكون ذلك شاهراً عنده بفضلك، وزائداً له في محلك. ولن إذا غضب، وأق الكريهة دونه
أن رهب، واصرف لحظك عنه أن أكل أو شرب. وسد بينك وبينه باب العتاب،
بالمشافهة أو الكتاب، ولا تخفف من طاعة الملك إلا لما وافق طاعة ربه، يضع الله تجلتك
في قلبه.

وأذكر قول الوزير المتقدم الذكر، وقد أمره الملك المسلم بقتل رجل، وتلطف في سؤاله
عن ذنبه، بما جر عظيم إنكاره، وقطيع عتبه.

أيها الملك (٦٠: أ) السعيد: لو كنت مالكي وحدك، لأنفذت - من غير مسألة - أمرك،
وشرحت - بالامثال - صدرك، ولكنك تملك ظاهري وحده ولي من يملكه وما بعده. وإذا
أنفذت عهدك نكثت عهده، وإذا خرجت من يدك دخلت في يده، التي لا تمنع،
فكيف تصنع، وله الأمر اجمع؟! وأنا لك في طاعته من شرك نعلك أطوم. بكى الملك
الجاهل لصدق حجته، وحمل الرجلين من العفو على أوضح محجته.

وهذا القدر كافي لأولى الألباب.. من هذا الباب.

الركن الثالث

فيما يحذره من تقدم الملك عليه في الأمر الذي اسنده إليه وجعل زمانه في يديه

وأعلم، أن من العار بارتباضك^(١)، وسداد أغراضك - أن يتقدمك الملك بخلق هي أولى بك. وأدخل في حسابك من الصبر على الملامح، والانقياد للأوامر الدينية والنواهي. وهجر الدعة في الضيق والسعة، وشدة اليقظة، والذكر الذي تعني به الحفظة، ومن ذكر إقطاع، أو مقدار ارتفاع، أو اسم مرتزق، أو حصر عمل مفترق، أو التفكر في مصلحة المملكة، فإنه أن راض ذلك دونك وعلكه، ونهجه (٦٠: ب) منفرداً أو سلكه وتميز فيه بالمملكة، وسامحك في التقصير، وابع القصير، وسره سبقه أياك، وتقدمه عليك فيما ولاك - فهو مما يحط لديه أمرك، ويوهن قدرك، وأن كان قد غرك. يرى أنه لا موازر له فيما تهابه، ولا كافا فيما عرا بابه، وأمل منابه. واجتهد أن يراك شديد الحرص، أنفا من النقص. ولا يحس منك في وظيفتك بتقصير، ولا يشعر منك فيه ولو ببسير.

فصل

واحذر أن تسول لك قوة الأماكن، ودالة السلطان - الزيادة في الاستكثار، من الضياع والعقار، والجواهر النفيسة والاحجار، وغير ذلك من الاحتجاز والاحتكار، وما تدعو إليه جلالة المحل ونهاية المقدار، فينقسم فكرك وشغلك، ويضيع سعيك وفضلك، ويحصى عليك من يضمن^(٢) لك الافتراس، ولا يمكنك - من كيده الافتراس، ممن حرم حظه، لو كس معناه أو لفظه^(٣)، أو متطلع إلى أوفى من ميزانه، متسام إلى ما وراء إمكانه،

(١) الارتباض: الثبات.

(٢) هكذا في الأصل، فلعلها، يضمن، وهو أولى للسياق.

(٣) التعبير كناية عن القصور في بلوغ الأمل.

اقصرت به السياسة عن شأنه، فأضرم الحسد ناره، وأذكى أواره، وأعظم صغيرك وآثاره (٦١: أ) وتشوف إلى مناهضتك من كان عنها مقصراً، ويجهر من كان منستراً. ويستدعى الارتياب بما جلبه الحظ إليك، والاستظهار به عليك، وطمع الحاسد فيما لديك.

واختر مع الملك البلغة التي تقيمك، وتوسدك مهاد العافية وتنميك، وترفع كلك، وتشمل أهلك، حتى يعلم أنك بقليل ما يجريه لك العدل لديه، أغنى منه بالكثير الذي فى يديه. واجتنب الانهماك فى الاستكثار من الولد والحشد أولى العدد، والأذيال التي تنبت فى أقطار البلد، فإن الحاسد يراهم بذخا ونعمة، وإنما هم مؤونة ونقمة، وداعية إلى استهلاك عتاد، أو تدمير مستفاد، وأثاره حساد. لهم ورد جاهك وعليك صرره^(١). ولهم نفع كدحك وعليك ضرره. والاقتصاد فى أمرك أدوم لسلامتك. وارفح لمامتك، واغض لطرف حاسدك، وأصدق لفوائدك. وأروح لقلبك، واخلص فيما بينك وبين ربك.

وفيما عثرت عليه من التجارب، ووضحت منه المذاهب - أن المتفعل من الوزاء طويل صمره، ناجح أمره، مظفر (٦١: ب) بأعدائه واضداده، قريب من الحال المرضية فى معاده.

ولتكن همتك مصروفة إلى استبراء حال المملكة واعتبارها، وتكامل أقطارها، وما عليه كل جزء من أجزائها من سداد ثغراتها، ودفاع أعدائها، ونقصان ارتفاعها، واختلال أوضاعها، أو تدير مصلحة يبقى لك ذكرها وخبرها، ويحسن بك أثرها، وخف مصارع الدالة، فهى ادواء دوائك، وأكبر أعدائك.

واعلم، أن الاقتصاد - مع إمكان التوسعة، والتنزل مع الرتبة المرتفعة - ينبىء عن قوة رأيك، وصحة عزمك، واستقامة سعيك، والرغبة فى الترف، والميل إلى الصرف - دالة على غلبة الهوى على الشرف، وأجل ما جملت به زمانك، ورفعت شأنك - خدمة الشريعة، وإحياء رسومها، وقمع البدع وإزالة شؤمها، يدع لك الحمد وينخلد المجد. وتول ذلك - متى أمكنك بنفسك، ولا تكله لغيرك من أبناء جنسك. حتى إذا وقفت على

(١) الصرر: أراد بها الشدائد، وأحدها صرة، بفتح الصاد.

غميرة^(١) يجب تغييرها، ويتمين نكيرها - فارفع إلى الملك عينها، وقبح عند (٦٢: أ) شينها، ثم حل بينه وبينها، واطهر للناس أن قلقه أهمك منها أكثر من قلقك، وخلقه في إنكارها متقدمة لخلقك، تهد بذلك إليه ما يزيد في مكانتك، ويغبط بأمانتك، ويشهر موازرتك واعانتك. وحسبنا الله. ونعم الوكيل.

(١) الغميرة في الأصل — مجمع الماء الكثير، والتعبير هنا على سبيل الكتابة.

الركن الرابع

فى تصنيف أخلاق الملوك للسير بمقتضاها والسلوك

وأعلم. أن للملوك أخلاقاً يضطر الملائف من خدامها إلى استعمالها، فيجعلها أساساً للسياسة وأحكامها، وهى أن الملك لا يخلو لمن يكون سخياً وباذلاً، أو ممسكاً باخلاً، قوياً على تدبيره، أو ضعيفاً يلقي المقادة لوزيره، أو سيئاً ظنه، أو ممن الاسترسال منه. أو حسن البشر عند الافتراض، أو منقبضاً عند الأغراض. وإذا تركبت هذه الخلال تركيباً طبيعياً، وترتبت ترتيباً وضعياً، وتقابل امتزاجها، بلغ - إلى ستة عشر - ازدواجها، وتأنى للحكيم من الوزراء - علاجها، وربما انحرفت هذه الخلق أو توسطت، وربما أفرطت فى (٦٢: ب) هذا الترتيب وارتبطت.

فإن كان سخياً أثر درر الشكر على توفير نوافل المائل، وكلف بحسن الذكر فى جميع الأحوال، وأن كان بخيلاً فبضد هذه الحال. وأن غلبت عليه قوة التدبير استدعاك إلى المشاركة فى سعيك، وأحرز عليك بذلك الحجة فى رأيك، وأن غلب عليه الضعف ركن إلى تدبيرك، وفوض إليك الأمر فى قليلك وكثيرك، وخلاك وما لا يحمد من عواقب أمورك. وأن كان حسن الظن تمكنت من أحكام تدبيرك لدولته، وبلغت منها أقصى مصلحته. وأن كان سىء الظن شغلك عن الإخلاص، يطلب الخلاص، وبإحراز الحجة عليه، عن التفرغ لكثير ما يحتاج إليه. وأن كان البشر عليه غالباً، كان لنشاطك غالباً.

فاجعل هذه الأخلاق أصولاً، ورعيك لها موصولاً، وصاحبه على خلقه وعقله، وانقل منها بالتلطف ما قدرت على نقله. وأعط صورة من تخدمه ما يناسب تكاليفها، ويرفع تكليفها، وانفق ما (٦٣: أ) ينفق عندها، واجتنب ضدها يحسن أثرك، ويعظم شأنك، وينتقد - لك - سلطانك.

الركن الخامس

فى سيرته مع من يتطلع لهضيقته ويحسده على رتبته

وأعلم أنه قلما يخلو من حل محلك - من علو القدر، وعزة الأمر - عن قرين يعانده، أو حاسد يكايدته، أو متطلع يمت إلى الملك بقربى، أو محل قاف فى اللطافة وارىبى. يتوهم أن وسيلته تبغله ما يتناول إليه من منزلتك، وتلبسه تجلتك، أو ذى همة جامحة، ولا عنان الشرف طامحة، يرى أن حظه منحوساً، وأن مثله لا يكون مرؤوساً. وآخر رآك مقترا فيما آثرت فيه. رضى من حكم بفضلك، وحسن الإبقاء فى المملكة بعدلك. واحتفل لدافعة حسن موقعك، وجلالة محلك. فظن تراخيك لإخلال فى التدبير، وإساءة فى التقدير، وكلهم ينظر إلى الملك ومن أصغر جوانبه، ويخفى عنه أكثر مما يظهر من مذهبه. ولطف المحل، والتقدم فى العلم والفضل - وأن كان يغير من حل محلك، وناهضك فضلك - ليس (٦٣: ب) من الاضطرار أن يكون لمنزلته أسباباً، ولا لطلبته أبواباً.

والحق أن تجاهد هذه الجماعة، وتقمع منها النفس الطامعة، بالزيادة فى فضائلك الدانية، والمناصحة لمن خصك المزية، ولا تكشف فى المجادة وجهها، ولا تبد فيهم غيبة ولا نجها^(١) واكسر سورة حسدهم بإحسانك، وسوغهم بالمعروف من وجهك ولسانك. واصطنع اصدادهم ممن ضلع عليهم، ومثل لديهم، تحرس غيبك، وتدافع عيبك، وتجلو ريبك، من غير أن يحسن منك لهذا الغرض بفاقة، ولا يشعر بإضافة، فإنك تنشر نيتهم المطوية، وترميهم من أشكالهم بالبلية، ثم تتلقى بعد ذلك فوارطهم بحسن الإقالة، وتتعمد سقطاتهم بالجلالة. وتكرم بكرم العفو على سوءاتهم السوالف، وتخليهم وما بقلوبهم من الحسايف^(٢). فإن تسلط الجاهل على نفسه فيما قصر عنه من عدل، أو

(١) تقدمت الإشارة إليها بمعنى النجوى.

(٢) الحسايف - واحدة الحسيفة بمعنى العداوة والغيط، يقولون "رجع بحسيفة نفسه" أى رجع ولم يقض حاجة نفسه. وفعله حسف بفتح فكسر، بمعنى اضممار العداوة والغضب.

اخطأ نيّله من فضل، أعز على حوبائه^(١) من ظفر بأعدائه. ولا تركن إلى مزورته، ولا لمن حركت جسده وأثرته.

وخذ حاشيتك (٦٤: أ) بترك التعالي، والتطامن لذوى الشرف العالى، والأقصار من المطامع، وأدلتك فى المسامع، ولتتخذ العدل فى الناس إلى الفضل، والبشر إلى البذل، والقول الصالح إلى الفعل، واختر من تصطنعه لخدمتك. وتنصبه مظهرا لنعمتك، بتنبئيه إلى ما شرط فى الاختيار فى رتبك. فإن إحسان الصنعة يرد عنك سوء الإقالة، وقبح الأدالة، ويصون عرضك من الادالة.

(١) الحوباء - قيل هى مأخوذة من الحوبة بمعنى الحاجة.

الركن السادس

فيما تناس به الخاصة والبطانة

وذوو الدالة والمكانة

وأعلم أن من الخاصة مريضاً لشدائد الدولة، ومهتماً بها، ومتسماً من ألقاب العناء فيها - بإكرام سماتها. فهو يرى لنفسه اليد اليوم والغد، وآخر متعلق بقراية من الملك وحرمه، أو وكيد^(١) ميل وذمة. وليست حظوظهم من الملك على حسب قوة اسبابهم، ووزن ما فى حسابهم. فإن أطعت فيهم الملك ظلمت الملكة حقها، وأن عدلت خالفت موافقة الملك وباينت طرقها. والصواب التمسك بالترتيب على الإطلاق (٦٤: ب) ووضع الناس من الملكة موضع الاستحقاق، واستعمل إرضاء الملك، فى تفضيل من آثره بحسن العطية، وبأين بين أصناف الشفوف^(٢) وأنواع المزية.

وأعلم أن ميل الأعلام إلى رفعة المنزلة أعظم منها إلى الصلة. وراع مر الجماعة، فتمم ما وقع بالمستحق من التقصير بكرم المواعد واللقاء المعاذير، وأصلح قلوبهم للملك بكل ما يتكفل بجبر الكسير، واجذبها إلى طاعته بحسن أوصافك، وصحة رأيك فى القليل والكثير، وانحله فضائلك من غير شوب بالمن ولا تكدير، تصف لك سريرة صدره، وبأتمنك على جميع أمره.

وأحذر انصباب القوم عليك، واخلالها بمراكزها من داره، وانصرافها إليك والتحامها بك، وتمسكها دون الملك بأسبابك، اعتماداً على نصرة جنابك وقيامك بأمرها وحسن

(١) الركيذ والأكيذ - الدقيق الثابت والشديد. وأفضل التفضل منه.. أوكد وأكد.

(٢) الشفوف - الثياب الرقيقة، واحدها - شف بكسر الشين وفتحها قال الشاعر:

ولبس عباءة وتقر عينى أحسب إلى من لبس الشفوف

والشعر لى للولف على سبل الحجاز، والقصد تحرى الصواب فى التفرقة بين مختلف الطبقات.

مناكب. وخف وضعا منها، وأياك من قلوبها وعيونها وكافة شؤونها، بحيث لا يؤثر الملك رضاه، ولا يحمد مقتضاه. فريما زرع لك فى قلبك سوء الطوية، وأثبت لك الحقد (٦٥: أ) وخبث النية. وخبأ لك - وأنت لا تعلم - أعظم البلية.

ولتتمكن من النفوس أن رضاك برضاه معقود، وأنتك لا تعمل إلا ما رآه، ولا تؤثر إلا ما أرتضاه، وأن لك عنده منزلة محدودة، ودرجة معدودة من ذاك عنها ظلمك، وجلب الملك. وأن فى قبولك لها وإيثارك، ما يزرى على فضل اختيارك.

وعامل الملك فى ولده لحفظ الغيب، والسلامة من الريب، واحفظ له الرحم واستبقه، واجعل حقهم دون حقه. وإذا دعوت لهم فاشترط العمادة بخدمته وطاعته، وأجعل رضاه من الولد رأس بضاعته، وأحذر من أعمال هذا الغرض وإضاعته. وإياك أن يفضل ولدك ولده، ولا عدتك عدده، ولا تنافسه فى شىء قصده، ولا تظهر حاشيتك على حاشيته، ولا تتشبهه غاشيتك بغاشيته. ولا تنازعه تجلته، ولا تعمر مزلقته^(١) ولا تحل محله من جيشه، ولا تغر عليه فى نباهة بنائه وفضل عشه. وتفقد نفسك فانزل على الرقا^(٢) اختياراً، قبل أن ينزلك اضطراراً.

فصل

وإذا انصرفت (٦٥: ب) إليك من إحدى خدمه رغبة، أو تأكدت فى مهم قريبه، أو ندرت إليك شفاعته، أو توجهت فى حاجة طماعة - فلا تسمع رسالتها، ولا تعتبر مقائنتها، إلى من لسان إنسان، موصوف عند الملك بإحسان، حال من ثقته بمكان. واحترز فى محاولتها من فلتات اللسان وهفواته، وراجع خطابها مراجعة الأخ الأكرم أخواته، أو

(١) المزلة - موضع الزلل.

(٢) الرقا - بتشديد الراء وسكون القاف، الصعود من قولهم "لا أرقا الله دمعته" بمعنى - لا رفع

الله دمعته. والمرقا، بكسر الميم أو فتحها - الدرجة يرقأ إليها.

الابن الأبر أمهاته. ولا تنصع فى مخاطبتها إلى خضوع كلام، ورقة تحية وسلام، وانفر من ذلك نفرتك من السموم الوصية^(١) المهلكة الردية.

وأسدل دون الولد والحرم جناح التقية. واكثم سره عن أبناء جنسك، وبل عن نفسك، واجعل قلبك له قبراً، وأوسع ضنائة وصبراً. فإن تراحم عليك تراحما تخاف منه معرفة النسيان، وإغفال دهرها عن الاحيان - فاتخذ لها رمزاً يفرك بعلمها، ولا تبج لسواك شيئاً من حكمها. ولا تغفل من الاحيان ما جرى به رسمك من عرض كتاب بوافد، أو خير رافد، أو بريد قاصد، وأستأمره فيما جرت به العوائد.

وان (٦٦: أ) خصت لدية منزلتك، ولطفت منه محلثك - فلا تترك أن تمرر ذلك على سمعه، مغتتما لوعية، وأذقه حلاوة الاستبداد بأمره ونهيه. واترك له منفذا يحتاج إليه بابيه عند مغيبك، لما عينه العدل من نصيبك. ولازم شدته مع الأحيان. وأياك أن تجتمع معه على فراغ، فيبقى الملك مضيعا بمقدار ذلك الزمان. وإذا انصرفت إلى منزلك فاخل بعمالك وكتابتك، وذوى الرأى والنصيحة من أصحابك، على أحكام حال الملك التى ناطها بك. فإذا أمسيت فاشغل طائفة من ليلك بمدارسة شىء من حكم الدين، وأخبار الفضلاء المهتدين، وأجل صدأ نفسك بالبراهين، ومجالسة العلماء والصالحين. واختم سعيك ببعض صحف السنين، وأدعية المرسلين والمتألهين^(٢).

لتختم يومك بالطهارة والعفة، والحلم والرافة، واعتدال الكفة، وليهن عليك النصب والوصب، والعمر المعتصب.

إنك مهتد بهدى ربك الذى يرداك، وينجح مسعاك، ويثبت على ما إليه دعاك.

(١) الوصية بتشديد الصاد بمعنى السريعة، يقال "موت وصى" أى سريع، ويقال: القتل بالسيف وصى، أو أسرع.

(٢) يقصد المنتسكين، ممن طارت لهم شهرة فى هذا الميدان.

قال: فلما استوفى النمر مقاله، واحرز الشبل سؤاله، وقر حاله - انصرف مبتهجا إلى خدمته، وصرف النمر - إلى العبادة - وحه همته. ثم لحق - بعد ذلك - بجوار ربه ورحمته.

وقيد الحاكي ما أفادته هذه المحاولة، لتلقى رسما يقتفى، وعلمًا يهتدى به إذا ذهب الأثر وعفا.

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

مخطوط
مقامة السياسة

مقامة السياسة

ومن ذلك ما صدر عنى فى "السياسة" وكان إملأؤها فى ليلة واحدة، حديث من امتاز باعتبار الأخبار، وحاز درجة الاشتهار ومعامل حوادث الليل والنهار، وولج بين الكرائم والأزهار، وتلطف لخجل الورد من تبسم البهار^(١)، قال:

سهر الرشيد ليلة، وقد مال فى هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه فى جب راحته،
والمام النوم بساحته، فشحت عهودهم^(٢)، ولم يغن اجتهادهم، فقال، اذهبوا إلى طرق
سماها ورسمها، وأمهاث قسمها، فمن عثر عليه من طارق ليل، أو غثاء سيل، أو صاحب
ذيل، فبلغوه، والامنة^(٣) سوغوه واستدعوه، ولا تدعوه، فطاروا عجلاً، وتفرقوا ركبانا
ورجالا، فلم يكن إلا ارتداد طرف أو فوارق حرف، وأتوا بالغنيمة التى اكتسبوها،
والبضاعة التى ربحوها، يتوسطهم الأشعب الأغير، واللج الذى لا يعير، شيخ طويل
القامة، ظاهر الاستقامة، سبلته مشطة، وعلى أنفه من القبح مطه، وعليه ثوب مرقوع،
(لطير الحرق)^(٤) عليه وقوع، يهيم بذكر مسموع، وينبىء عن وقت مجموع، فلما مثل
سلم، وما نبس^(٥) بعدها ولا تكلم، فأشار إليه الملك فقعد، بعد أن تشمر وابتعد، وجلس
فما استرق النظر ولا اختلس، وإنما حركه فكره، معقودة بزمام ذكره، لحظات اعتباره،
فى تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيد سائلا، وانحرف إليه مائلا، قال: بلدك وأهلك

(١) وردت فى نسخة: ك، "النهار".

(٢) فى ك "عهادهم"، وربما كانت هنا لصبوب.

(٣) هذا ما ورد فى ك، وفى "س".

(٤) هذا فى ك وفى س.

(٥) فى ك: وما "انبس".

وولدك؟ قال: أما الولد فولد اليوان، وأما البلد فمدينة الايوان، قال: النحلة، وما عملت إليه الرحلة؟ قال: (أما النحلة فالأمر الكبار، وأما الرحلة فالاعتبار)^(١)، قال: فنك الذى اشتمل عليه دنك؟ فقال: الحكمة فنى الذى جعلته اثيراً، واضجعت منه فراشاً وثيراً، وسيحان الذى يقول: "ومن يؤت الحكمة، فقد أوتى خيراً كثيراً"^(٢)، وما سوى ذلك فتبع، ولى فيها مصطاف ومرتبع.

قال: فتعاضد جذل الرشيد وتوفر، كأنما أفشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة اجمع لامل شارد، وانعم بمؤانسة وارد. يا هذا، أنى سائلك، ولن تخيب بعد رسائلك، ما عندك فى هذا الأمر الذى بلىنا بحمل أعبائه، ومنينا بمراوضة أبائه؟ فقال: هذا الأمر قلادة ثقيلة ومن خطة العجز مستقيمة، ومفتقرة^(٣) لسعة الذرع، وربط السياسة المدنية بالشرع، يفسده الحلم^(٤) فى غير محله، (ويكون ذريعة إلى حله)^(٥)، ويصلحه مقابلة الشكل بشكله، ومن لم يكن سبعا آكلا، تداعت السباع إلى أكله، فقال الملك: أجملت ففصل، وبريت فنصل، وكلت فوصل، وانثر الحب لمن يحوصل، وقسم السياسية فنونا، واجعل لكل لقب قانونا، وابدأ بالرعية، وشروطها الرعية.

"الرعية"

فقال: الرعية رعيتهك، وودائع الله تعالى قبلك، ومرآة العدل الذى عليه جبلك، ولا تصل إلى ضبطهم إلا (بأمانة الله تعالى)^(٦) التى وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم، وكافيته. التى تكفيهم، وتقويم نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسهل

(١) فى د "أما الرحلة فالاعتبار، وأما النحلة فالأمر الكبار".

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ البقرة: ٢٦٩.

(٣) هذا ما ورد فى ك وفى س: مفترقة.

(٤) وفى ط: الحكم.

(٥) الزيادة فى ك.

(٦) الزيادة فى د، وفى س: الأمانة.

لتنويمهم، (وحراسة كهلمهم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم^(١))، وأخذ كل طبقة بما عليها ومالها، (أخذًا يحوط مالها، ويحفظ عليها كمالها)^(٢)، ويقصر عن غير الواجب أمالها، حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنامك، وتعرف أوساطها في النصب امتنانك، وتحذر سفلتها سنانك، وحظر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها، وسد فيها سبل الذريعة، واقصر جمعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أعيانها^(٣) من (البطر)^(٤)، والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتمسّدق والاطالة، وليقل فيما شجر بين الناس كلامها ويرفض مما تنجز به أعلامها، فإن ذلك يسقط الحقوق، ويرتب العقوق، وامنعهم من فحش الحرص والشرة، وتعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المره، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على احسن المذاهب، وانهم عن التحاسد على المذاهب، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال، والتعزى عن الفائت فرده من المحال. وحظر^(٥) البخل على أهل اليسار، والسخاء على أولى الأعراس. وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر، وامنعهم عن تأويلها منع القاهر، ولا تطلق لهم التجمع على ما أنكروا أمره فى نواديهم، وكف عن أكف تعديهم، ولا تبج لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكن غايتهم فيما توجهت إليه إبايتهم، ونكصت عن الموافقة عليه رأيتهم، وإنهاء إلى من وكلته بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره، وحمدت على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه من التأنيب، وقابل الهفوه باستنابة المنيب، ومن لا يتخطى عن محله الذى حله، فربما عمد إلى المبرم فحله. وحسن النية لهم بجهد الاستطاعة، واغتفر المكاره فى جنب حسن الطاعة، وإن ثار جرادهم^(٦) واختلف فى طاعتك مرادهم، فتحصن لثورتهم، وأثبت لفورتهم، فإذا سلوا وسلوا، وتفرقوا وانسلوا، فاحتقر كثرتهم، ولا تقل عثرتهم، واجعلهم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا، ولا تترك لهم على حلمك اتكالا.

(١) الزيادة فى د.

(٢) فى س : اخذ يحوط كمالها.

(٣) فى ك: اغنياءها.

(٤) واردة فى ك، وساقطة فى س.

(٥) فى د : وحدد.

(٦) هذا فى س، وفى ك : جرادهم.

”الوزير“

ثم قال: الوزير الصالح أفضل عددك، وأوصل مددك، فهو الذى يصونك عن الابتذال، ومباشرة الانذال، ويثب لك على الفرصة، وينوب فى تجرع الغصة، واستجلاء القصة، ويستحضر ما نسيته من أمورك، ويغلب فيه الرأى بموافقته مأمورك، ولا يسعه ما تمكنت المسامحة فيه حتى يستوفيه، وأحذر مصادمة تياره، والتجوز فى اختياره، وقدم استخاره الله تعالى فى إثارة، وأرسل عيون الملاحظة فى آثاره. وليكن معروفاً بإخلاص تدولتك، معقود الرضاء والغضب برضاك وصولتك، زاهدا عما فى يديك، مؤثراً لكل ما يزلف لديك، بعيد الهمة، راعياً للالزمة، كامل الألة، محيطاً بالأيالة، رحب الصدر، رفيع القدر، معروف البيت، نبيه الحى والميت، مؤثراً للعدل والإصلاح، درياً بحمل السلاح. ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها، وظهرها وسرحها، صحيح العقد، متحرزاً من النقد، جاداً عند لهوك، متيقظاً فى حال سهوك، يلين عند غضبك، ويصل الإسهاب^(١) بمقتضبك، قلقاً من شكره دونك وحمده، ناسياً لك الإصابة بعمده.

وإن أعيا وجود أكثر هذه الخلال، وسبق إلى نقضها شىء من الاختلال، فاطلب منه سكون النفس وهدوئها، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى^(٢) قدره دونها. وتقوى الله تفضل شرف الانتساب، وهى للفضائل فذلكه الحساب، وساو فى حفظ عيبه بين قربه ونايه، واجعل حظه من نعمتك موازياً لحظك من حسن رأيه، واجتنب منهم من يرى فى نفسه إلى الملك سبيلاً، أو يقود من عصبه لاستظهار عليك قبيلاً، أو من كائر مالك ماله، أو من تقدم لعدوك استعماله، أو من سمت لسواك أماله، أو من يعظم^(٣) عليه أعراض وجهك، ويهمه نادر نهجك، أو من يداخل غير أحبابك، أو من ينافس أحداً ببابك.

(١) هذا فى د وفى س : الأسباب، ولعله أصوب.

(٢) هذا فى ك، وفى س: يرى، ولعله ارجح.

(٣) هذا فى د . وفى س : يعرض.

" الجند "

(وأما الجند) فاصرف التقديم^(١) منهم للمقاتلة والمكايد والمخاتلة، واستوف عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، وما أوجبت لهم من الجراية والنعمة، وتعاهدهم عند الغناء بالعلقة والطعمة، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب في الذب عن ملكك ثناؤه، وول عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم، ولا توطنهم الدعوة مهادا، وقدمهم حصصك وبعوثك متى^(٢) أردت اجتهادا، ولا تلتن لهم في إغماض عن حسن طاعتك قيادا، وعودهم حسن المواساة بأنفسهم اعتيادا ولا تسمح لأحد منهم في إغفال شيء من سلاح استظهاره، أو عدة اشتهاره، وليكن ما فضل من شبعهم وريهم مصروفا إلى سلاحهم وزريهم والتزيد في مراكيهم وغلمانهم، من غير تبطر (لما في إيمانهم).

وأمنعهم من المستغلات^(٣) والمتاجر، وما يكسب منه غير المتاجر، وليكن من الغزو اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها، وأعلم أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلا أنها لمن يملك قلوبها بالإحسان، وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورتبها بالميزان (القويم)^(٤)، ومن ثقت بأشفاقه على أولادها، ويشترى رضا الله تعالى بصبره على طاعته وجلادها، فإذا استشعرت لها هذه الخلال، تقدمت إلى مواقف التلف، مطيعة دواعي الكلف، واثقة منك بحسن الخلف، واستيق إلى تمييزهم استباقا، وطبقهم طباقا، أعلاها من أملت منه في المحاربة عنك أخطاراً، وأبعدهم في مرضاتك مطارا، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزمًا ووقاراً واستهانة بالعظام واحتقارا، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية

(١) هذا في ك، وفي س: التقويم.

(٢) في ك مهما.

(٣) في د : المشغلات.

(٤) الزيادة في "ك".

جواراً، إذا أوجدت اختباراً وأشدهم على ملاحظة من مارسه من الخوارج عليك اصطباراً،
ومن بلى فى الذى عن لك احلاء وإمراراً، ولحقه الضر فى معارض الدفاع عنك مراراً،
وبعد من كانت محبته لك أزيد من نجدته، وموقع رأيه انفع من موقع صدته، وبعدهما
من حسن انقياده لأمرائك واحماده لآرائك، ومن جعل نفسه من الأمر حيث جعلته،
وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده^(١) بما فعله.

وأحذر منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه فى الانتفاع، ولم يستحى من التزيد
بأضعاف ما بذله من الدفاع، وشكا البخس فيما تعذر عليه من فوائدك، وقاس بين عوائد
عدوك وعوائدك، وتوعد بانتقاله عنك وارتحاله، وأظهر الكراهية لحاله.

” العمال ”

(وأما العمال) فأنهم ينبئون عن مذهبك، وحالهم فى الغالب شديدة الشبه بك،
فعرفهم فى أمانتك السعادة، والزمهم فى ريعتك العادة، وأنزلهم من كرامتك بحسب
منازلهم فى الإنصاف، بالعدل والإنصاف وأحلهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة
والكفاية، وقمهم عند تقليد الإرجاء، مواقف انخوف وئرجاء، وقرر فى نفوسهم أن أعظم
ما به إليك تقربوا، وفيه تدربوا، وفى سبيله أعجموا وأعربوا - إقامة حق، ودحض
باطل، حتى لا يشكو غريم مظل ماطل، وهو أثر لديك من كل رباب هاطل، وكفهم من
الرزق الموافق، عن التصدى لدنى المرافق، واصطنع منهم من تيسرت كلفته، وقويت
للعرايا الفته، ومن زاد على تأميله صبره، وأربى على خبره خبره، وكانت رغبته فى
حسن الذكر، تشف على غيرها من بنات الفكر، واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق
فى الانفاق، وعدم الاشفاق، والتنافس فى الاكتساب، وسهل عليه سوء الحساب،
وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصى والكفاية، ومن كان منشؤه خاملاً، ولاعباء
الدناءة خاملاً.

(١) هذا ما ورد فى د، وفى س: صبره ولعله أرجح.

وابغ من يكون الاعتذار فى أعمائه أوضح من الاعتذار فى أقواله ، ولا يقتنك من قلدته اجتلاب الحظ المطمع^(١) ، والتنفق بالسمى المسمع ، ومخالفة السنن المرعية ، (واتباعه رضاك بسخط الرعية)^(٢) ، فإنه قد غشك ، من حيث بلك ورشك ، وجعل من يمينك فى شمالك ، حاضر مالك. ولا تضمن عاملا مال عمله ، وحل بينه فيه وبين أمله ، فأنتك تमित رسومك بمحياه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه. ولا تجمع له بين الأعمال ، فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على والد بولد ، واحرص على أن يكون فى الولاية غربياً ، ومنقله منك قريباً ، ورهينة لا يزال معها مريباً ، ولا تقبل مصالحته على شيء. اختانه ، ولول برغبة فتانه ، فتقبل المصانعة فى أمانتك ، وتكون مشاركا له فى خيانتك ، ولا تطل مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممن يرمى الهمل ، ويبلغ الأمل.

” الولد ”

(وأما الولد) فأحسن آدابهم ، واجعل الخير دأبهم ، وخف عليهم من إشفاقك وحنانك ، أكثر من غلظة جنانك ، واكتم عنهم ميلك ، وأثبتهم على حسن الجواب ، وسبق إليهم الخوف الجزاء على رجاء الثواب ، وأفض فيهم جودك ونيك ، ولا تستغرق بالكلف بهم يومك ولا ليلتك ، وعلمهم الصبر على الضرائر ، والمهلة عند استحقاق الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ، وحبب إليهم مراس الأمور الصعبة المراس ، وحسن الاصطناع والافتراس^(٣) ، والاستكثار من أولى المراتب والعلوم ، والسياسات والعلوم ، والمقام المعلوم ، وكره إليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ، وأحذر الكذب على مقولهم ، ورشحهم إذا آنتست منهم رشداً أو هدياً ، وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثدياً ، لتمرنهم على الاعتیاد ، وتحملهم على الازدياد ، ورضعهم^(٤) رياضة الجياد ،

(١) فى د : المقنع.

(٢) هذه الجملة ساقطة فى س ، واردة فى ك .

(٣) فى ك : الاحتراس .

(٤) الامر من راض ، والمصدر إذا هجمت .

وأحذر عليهم الشهوات فى أدوائهم، وأعداؤك فى الحقيقة أعدائهم، وتدارك الخلق الذميمة كلما نجمت، وأقرعها كلما هجمت^(١)، قبل أن يظهر تضعيفا، فإن أعجزتك فى صغرهم^(٢) الحيل، عظم الميل.

إن الغصون إذا قومتها اعتدلت... ولن تلين إذا قومتها الخشب.

وإذا قدروا على التدبير، وتشوفوا للمحل الكبير، فأياك أن توطنهم فى مكانك (جهد إمكانك)^(٣)، وفرقهم فى بلدانك، تفريق عبدانك، واستعملهم فى بعوث جهادك، والنيابة عنك فى سبيل اجتهادك، فإن حضرتك تشغلهم بالتحاسد، والتبارى والتفاسد، وانظر إليهم بأعين الثقات، فإن عين الثقة تبصر، ما لا تبصر عين المحبة والمبقة^(٤).

“ الخدم ”

(وأما الخدم) فإنهم بمنزلة الجوارح التى تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع، فرضهم بالصدق والأمانة، وصنهم صون الجمانة، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما آثرته، والتقليل مما استكثرتة، وأحذر منهم من قويت شهواته، وضائق عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعك فى استرقاقه، وتشاركك فى استحقاقه، وخيرهم من شر ذلك عنه بلطف الحيلة، وآداب الفساد مخيله، واشرب قلوبهم أن الحق فى كل ما حاولته واستنزلتة، وأن الباطل فى كل ما جانبته واعتزلته، وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب، وبابن الأدب وتجنبن وأعط من أكديته، وأضقت منه ملكه وشدده - روحة يشتغل فيها بما يغنيه، على حسب (صعوبة)^(٥) ما يعانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتجم كيلة جوارحهم. ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذى لا يبطر لآعلامهم، ولا يؤسف (الأصاغر فيفسد)^(٦)،

(١) فى ك : "وأذعهما إذا هجمت".

(٢) فى ك : الصغر .

(٣) ناقصة فى س، وورادة فى د.

(٤) فى د : والمقة.

(٥) ساقطة فى س ، وورادة فى د.

(٦) ساقطة فى س، وورادة فى د.

أحلامهم، ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك، واترك لمزيدهم فضلة من رفدك
ولسانك، وحذر عليهم مخالفتك ولو فى صلاحك بحد صلاحك، وأمنهم من الثواب
والتشاجر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر.

واستخلص منهم لسرك من قلت فى الإفشاء ذنوبه، وكان أصبرهم على ما ينوبه،
ولودائعك من كانت رغبته فى وظيفة لسانك، أكثر من رغبته فى إحسانك، وضبطه لما
تقلد من وديعتك، أحب إليه من حسن صنيعك، وللسفارة عنك من حلا الصدق فى فمه،
وأثره ولو بإخطار دمه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله، وعنى بلفظه حتى لا يهمله،
ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت
قسوته زائدة على رحمته، وعظمة فى مرضاتك أثر من شحمته، ورأيه فى الحذر شديد،
وتحرزه من الحيل شديد، ولخدمتك فى ليك ونهارك من لانت طباعة، وامتد فى حسن
السجية باعه، وأمن كيده وغدره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع،
واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريئا من الملاك، والبشر عليه أغلب الخلال، ولا تونسهم
منك بقبيح فعل ولا قول، ولا تؤسهم من طول، ومكن فى نفوسهم أن أقوى شفعاثهم،
واقرب إلى الإجابة من دعائهم — إصابة الغرض فيما به وكلوا، وعليه شكلوا، فإنك لا
تعدم بهم انتفاعا، ولا يعدمون لديك ارتفاعا.

” الحرم ”

(وأما الحرم) فهم مغارس الولد، ورباحين الخلد، وراحة القلب الذى اجهدته الافكار،
والنفس التى تقسمها الاحماد إلى المساعى والإنكار، فاطلب لهن — من غلب عليهن من
حسن الشيم، المترفة عن القيم — ما لا يسوءك فى خلدك، أن يكون فى ولدك. وأحذر أن
تجعل لفكر بشر دون بصر إليهن سبيلا، وأنصب دون ذلك عذابا وبيلا، وأرعهن من النساء
العجز من بانة فى الديانة والأمانة سبله، وقويت غيرته ونبله، وخذهن بسلامة النيات،
والشيم السنيات، وحسن الاسترسال، والخلق السلسال، وأحذر عليهم من التغامز والتغاير،
والتنافس والتخاير، وآس بينهن فى الأغراض، والتصامم عن الأعراض والمحابة
بالأعراض، وأقلل من مخالطتهن، فهو أبقى لهمتك، وأسبل لحرمتك، ولتكن عشرتك لهن

عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم، والفراغ من نصب اليوم، واجعل مبيتك بينهن تنم بركاتك، وتستثر حركاتك، وافصل من ولدت منهن إلى مسكن يختبر به استقلالها، ويعتبر بالتفرد خلالها، ولا تطلق لحرمة شفاعه ولا تدبيرا، ولا تنط بها من الأمر صغيرا ولا كبيرا، وأحذر أن يظهر على خدمهن فى خروجهن عن القصور، ويروهن من أجمة الأسد الهصور، زى بارع، ولا طيب للأنوف مسارع، واخصص بذلك من طعن فى السن، ويئس من الانس، والجن، ومن توفر النزوع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ووسم بالبله.

ثم لما بلغ إلى هذا الحد، حمى وطيس استجفاره، وختم حزيه باستغفاره. (ثم صمت مليا)^(١)، واستعاد كلاما أوليا، ثم قال: واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته، وعصمك من الزمان وآفته - أنك فى مجلس الفصل، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل، فى طائفة - من عز الله تعالى - تذب عنك حمايتها، وتدافع عن حوزتك كمامتها، فأحذر أن يعدل بك غضبك، عن عدل تزرى منه بضاعة، أو يهجم بك رضاك على إضاعة، ولتكن قدرتك وقفا على الاتصاف، بالعدل والإنصاف، واحكم بالسوية، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية، وخف أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين، أو تستفرك العجلة فى أمر لم يتبين، واطلع الحجة ما توجهت إليك، ولا تحفل بها إذا كانت عليك، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك، والحق أجدى من نفرك، ولا تردن النصيحة فى وجهه، ولا تقابل عليها بنجه^(٢)، فتمنعها إذا استدعيتها، وتحجب عنك إذا استوعبتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أولا الأغراض بجهلها، واحرص^(٣) على أن لا ينقضى مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، ألا وقد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه فى معادك بفائدة.

(١) ساقطة فى س، وواردة فى د.

(٢) السنجه، الرد أقبح الرد، والاستقبال بما يكره، وفعله: نجه ينجه. من باب فعل بفتحات يفعل بسكون ففتح.

(٣) زيادة ربما فضل بما المعنى.

” المال ”

ولا يزهديك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغايب، واذكر وقوع مالا يحتسب من النوائب، فالمال المصون أمنع (من)^(١) الحصون، ومن قل ماله قصرت آماله، وتهاون بيمينه وشماله والملك إذا فقد خزينه أخنى على (أهل)^(٢) الجدة التي تزينه، و(عاد)^(٣) على رعيته بالاجحاف، وعلى جبايته بالالحاف، وساء معتاد عيشه، وصفر في عيون جيشه، ومنوا عليه بنصره وانفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط أمان أهل السلاح به، والمال نعمة الله تعالى، فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين اتلافك واتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها، فإن فضل المال عن الآجل فأجل، ولم يصر ما تلف^(٤) منه بين يدي الله عز وجل، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسد الذريعة، مأمول خلفه، وما سواه فمتعين تلفه.

” الحاشية ”

واستخلص لنواذك الغاصة، ومجالسك العامة والخاصة من يلقي بولوح عتبها، والعروج لرتبها، أما العامة فمن عظم عند الناس قدره، انشرح بالعلم صدره، أو ”طهر يساره، وكان لله تعالى اخباته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصبا، وبتاج المشورة معتصبا. أما الخاصة فمن رقت طباعة، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه، ومن تبحر في سير الحكماء، واخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع المدنية متافر، ولديه من كل ما تستتر به الملوك من العوام حظ وافر، وصف البابهم بمحصول خيرك، وسكن قلوبهم بيمين طيرك، واغنهم ما قدرت عن غيرك.

(١) هذا في د. وفي س: وأعمل.

(٢) واردة في ك، وساقطة في س.

(٣) واردة في ك، وساقطة في س.

(٤) في د : خلف.

وأعلم بأن مواقع العلماء من ملكك، مواقع المشاعر المتألقة، والمصاييح المتعلقة، وعلى قدر تعهدك^(١) تبذل من أضياء، وتجلو بنورها صور الأشياء، وفرعها لتحبير ما يزين مدتك، ويحسن من بعد البلاء جدتك، وبعناية الأواخر عنيت^(٢) الأول، وإذا محبت المفاخر خربت الدول.

وصايا متفرقات

وأعلم أن بقاء الذكر مشروط بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي منها والدان، فاحرص على ما يوضح في الدهر سبلك، ويحرز المزية على من قبلك. وأن خير الملوك من ينطق بالحجة، وهو قادر على القهر، ويبذل الانصاف في السر والجهر، مع التمكن من المال والظهر، ويسار الرعية جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلب اليق الحالين بمحكك وأولاهما لظعنك وحلك، وأعلم أن كرامة الجور^(٣) دائرة، وكرامة العدل متكائره، والغلبة بالخير سيادة، وبالشر هوادة. وأعلم أن حسن القيام بالشريعة، يحسم عنك نكاية الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فأنها تقصد أنواع الخدع، وتروى بتغيير البدع، وأطق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء، والسنة اللفيف من الضعفاء، واستشعر عند نكته شعار الوفاء ولتكن ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تجندها، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تكتسب، ويمهد لك مع الأوقات نصرا لا يحتسب، والتمس أبدا مسالة^(٤) من سالمك، بنفيس ما في يدك وفضل حاصل يومك على منتظر غدك، فإن أبي وضحت محجتك، وقامت عليه للناس بذلك حجتك، فالنفوس على الباغي^(٥) ميل، ولها من جانبه نيل، واستهد في كل يوم سيرة من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك.

(١) في ك: تعاهدها.

(٢) هذا ما ورد في س، وفي ك: ذكرت.

(٣) هذا ما ورد في ك، وفي س: الخوف، وان روعي التطابق كان ما في المتن هنا أولى.

(٤) في ك: سلم.

(٥) في د: الباغين.

وأكذب الخبر ما يشيمه عن مساويك، وتقبل من الإطراء إلا ما كان فيك فضل من اطالته، وجد يزرى على بطالته، ولا تلق المذنب بحميتك وسبك، وأذكر عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربك، ولا تنس أن ذنب المذنب أجلسك مجلس الفضل، وجعل في قبضتك رياش الفضل، وتشاغل في هدنة الأيام بالاستعداد، وأعلم أن التراخي منذر بالاستعداد، ولا تهمل عرض ديوانك، واختبار أعوانك، وتحصين معاقلك وقلاعك، وعم أياتك بحسن اطلاعك، ولا تشغل زمن الهدنة بلذاتك، فتجنى في الشدة على ذاتك، ولا تطلق في دولتك السنة الكهانة والارجاف، ومطاردة الآمال العجاف، فإنه يبعث سوء القول، ويفتح باب العدول، وحذر على المدرسين والمتعلمين والعلماء والمتكلمين، حمل الأحداث على الشكوك الخالجة، والمزلات الوالجة، فإنه يفسد طباعهم، ويعرى سباعهم، ويمد في مخالفة الملة باعهم، وسد سبيل الشفاعات، فأنها تفسد عليك حسن الاختيار، والنفوس الخيار، وأبذل في الأسرى من حسن ملكتك، ما يرضى من ملكك رقابها، وقلدك ثوابها وعقابها، وتلق بدء نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتذالك، واختم اليوم بمثل ذلك، وأعلم أنك مع كثرة حجابك، وكافة حجابك، بمنزلة الظاهر للعيون، والمطالب بالديون، لشدة البحث عن أمورك، وتعرف السر الخفى بين أمرك ومأمورك، فأعمل في سرك ما لا يستقبح أن يكون ظاهراً، ولا تستأنف أن تكون به مجاهراً، واحكم بريك في الله ونحتك، وخف من فوقك يخفك من تحتك، وأعلم أن عدوك من اتباعك من تناسيت حسن قرضه، أو زادت مؤنته على نصيبه منك وفرضه، فأصمت للحجج، وتوق اللجج، واسترب بالامل، ولا يحملتك انتظام الأمور على الاستهانة بالعمل، ولا تحقرن صغير الفساد، فيأخذ على الاستئساد، واحبس الألسنة عن التحالى باغتيابك، والتشيبث بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة، ينتقل من الأعين الباصرة (إلى الألسن القاصرة)^(١)، ثم إلى الأيدي المتناصرة، ولا تثق بنفسك في قتال عدو ناواك، حتى تظفر بعدو غضبك وهواك، وليكن خوفك من سوء تدبيرك، أكثر من عدوك الساعى فى تثبيرك، وإذا استنزلت ناجماً، أو أمنت نائراً هاجماً، فلا تقلده البلد الذى

(١) ساقطة في س، وورادة في د.

فيه نجم، وهمى عارضه وانسجم، يعظم عليك القدح فى اختيارك، والغض بأكبر
إيثارك، واحترز من كيدته فى حوارك^(١) ومأمك، فأنك أكبر همه، وليس بأكبر همك،
وجمل الملكة بتأمين الفلوات، وتسهيل الأقوات، وتجويد^(٢) ما يتعامل من الصرف فى
البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات، ولا تبخس عيار قيم البضاعات.

ولتكن يدك على أموال الناس محجوره، وفى اخترامها - إلا عن الثلاثة - ماجورة.
مال من عدا طوره طور أهله، وتخارق فى الملابس والزينة، وفضول المدينة، بروح
معارضتك بحمله، ومن باطن أعدائك وأمن اعتدائك، ومن أساء حوار رعبتك باخساره^(٣)
ويذل الأذية فيهم بيمينه ويساره.

واضر ما منيت به التعادى بين عبدائك، أو فى بلد من بلدانك، فسد فيه الباب،
واسأل عن الأسباب، وانقلهم بواسطة أولى الألباب، إلى حالة الأحباب، ولا تطوق الأعلام
المنون، بهواجس الظنون، فهو أمر لا يقف عند حد، ولا ينتهى إلى عد، واجعل ولدك
فى احتراسك، (وصدق مراسك)^(٤)، حتى لا يطمع فى افتراسك.

ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف، وعموده يريد أن ينقص، ومجال الوصايا أكثر مما
يصف - قال يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاخر، وعمر الممتع بناديك العزيز مستأخر،
فإن أذنت فى فن من فنون الانس يجذب بالمقاد، إلى راحة الرقاد، ويعتق النفس بقدرة
ذى الجلال، من ملكة الكلال، فقال: أما والله قد استحسنا ما سردت، فشأنك وما
أردت، فاستدعى عوداً فأصلحه حتى أحمدته، وأبعد فى اختباره أمده، ثم حرك همه،
وأطال الجس ثمه، ثم تغنى بصوت يستدعى الإنصات، ويصدع الحصة، ويستفز الحليم
عن وقاره، ويستوقف الطير ورزق بينه فى منقاره، وقال:

(١) فى ك : حوارك.

(٢) فى ك : وتحديد.

(٣) فى د : باحساده.

(٤) ساقطة فى د.

صاح ما أعطر القبول بنمه اترها اطالت اللبث ثمة
هي دار الهوى منى النفس فيها أبرد الدهر والامانى جمّة
أن يكن ما تأرجح الجو منها واستقاد الشذا والافمة
من لطفى بنظرة ولا نفى فى رباها وفى ثراها بشمه
ذكر العهد فانتفضت كانى طرقتنى من الملائك له
وطن قد نضيت فيه شبابى لم تدنس منه البرود مذمه
بنت عنه، والنفس من أجل من خلفته فى جلاله مغتمة
كان حلما، فويح من أمل الد هر، واعماه جهله وأصمه
تأمل العيش بعد أن أخلق الج سم وبنياته عسير المرمه
وغدت وفرة الشبيبة بالشـ شيب على رغم أنفها معتمه
فلقد سلتك جعل اللـ سه إلى الله قصده ومأمه
من بيت من غرور دنيا بهم يلدغ القلب كأثر الله هممه

ثم أحال اللحي إلى لون التثويم، فأخذ كل فى النعاس والتهويم، وأطال الجس فى
الثقيل، عاكفا عكوف الضاحى فى المقييل، (فخاط عيون القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم
المراقد، كأنما أدار عليهم الفراقد)^(١) ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف. ولما أفاق
الرشيد جد فى طلبه، فلم يعلم بمنقلبه، فأسف للفراق، وازر بتخليد حكمه فى بطون
الأوراق، فهى إلى اليوم تتلى وتنقل، وتجلى القلوب بها وتصل، والحمد لله رب
العالمين.

(١) هذه العبارة واردة فى ك، ويقابلها فى الاسكوريك فقط، "فخاط العيون".

مصادر الدراسة والتحقيق

أولا : المصادر الدينية:

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - صحيح البخارى ومسلم.
- ٣ - مسند الإمام أحمد.

ثانيا: المصادر الغوية:

- ١ - لسان العرب.
- ٢ - القاموس المحيط

ثالثا : المصادر التاريخية:

- ١ - ابن الأثير (٦٣٠هـ/١٢٣٨م)، على بن أحمد أبى الكرم.
- "الكامل فى التاريخ" ١٢ جزءا (بولاق ١٢٧٤هـ) أحمد إبراهيم.
- ٢ - الجهشيارى (٣٣١هـ - ٩٤٣م) أبو عبد الله محمد بن عبدوس.
- "كتاب الوزراء والكتاب" نشره الأستاذة مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى،
وعبد الحفيظ شلبى (القاهرة ١٩٣٨).
- ٣ - جورج زيدان: "تاريخ التمدن الإسلامى" خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢م - ١٩٠٦م).
- ٤ - ابن حجر العسقلانى (٨٥٣هـ - ١٤٤٩م) شهاب الدين بن على. - "الإصابة فى
تمييز الصحابة" ٦ أجزاء (مصر سنة ١٩٢٣م).
- ٥ - حسن إبراهيم حسن - الدكتور "النظم الإسلامية" (القاهرة ١٩٧٠م ط٤).
- الفاطميون فى مصر (عن الإنجليزية) - المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢م.
- ٦ - ابن خلدون (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م - ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد.
- "مقدمة ابن خلدون" (بيروت ١٩٠٠م)، نقله إلى الفرنسية دى سيلان، وإلى
الإنجليزية روزنتال.
- "العبر وديوان المبتدأ والخبر" ٧ اجزاء (القاهرة ١٢٩٤هـ).
- ٧ - صبحى الصالح (دكتور)

- "النظم السياسية"، نشأتها وتطورها (بيروت ١٩٦٨ ط٢).
- ضياء الدين الرئيس (دكتور).
- "النظريات السياسية الإسلامية" (القاهرة ٦٦-٦٧ ط٤).
- ٨ - ابن طباطبا (توفى فى أوائل القرن الثامن الهجرى) محمد بن على المعروف بابن الطقطقى.
- الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية" (القاهرة ١٩٤٥ م).
- ٩ - الطبرى (٣١٠هـ - ٩٠٢م) جعفر: محمد بن جرير.
- تاريخ الأمم والملوك طبعة ذى غويه (لندن ١٨٨١ م) ٧ أجزاء (القاهرة ١٣٢٦هـ) ١٣ جزءا.
- ١٠- عبد الله عنان.
- "الدولة العامرية" (القاهرة ١٩٥٨).
- "لسان الدين ابن الخطيب" (القاهرة).
- ١١- ابن قتيبة (٢٧٦هـ - ٨٨٩م) أبو محمد عبد الله بن مسلم.
- "الإمامة والسياسة" جزآن (القاهرة ١٣٢٢هـ) وينسب إلى كاتب أندلسى قدامه
- (٣٧٧هـ - ٩٤٨م) أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى.
- ١٢ - كرد على.
- الإدارة الإسلامية فى عز العرب" (القاهرة ١٩٣٤ م).
- ١٣ - ماجد - الدكتور عبد المنعم.
- "نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر" الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٣ م)، الجزء الثانى (القاهرة ١٩٥٥ م).
- ١٤ - لماوردى (٤٥٠هـ - ١٠٦٧م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب البصرى.
- "الأحكام السلطانية" (القاهرة سنة ١٢٩٨هـ، لندن ١٩٠٦ م).
- "أدب الوزير" المعروف بقوانين الوزارة وسياسة الملك (القاهرة ١٣٤٨هـ - ١٩٢٩ م).
- ١٥ - المسعودى (٣٤٦هـ - ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على.
- كتاب "التنبيه والإشرف" (طبعة دى غويه) - لندن سنة ١٨٩٣ م.

- ١٦ - المقرئزى (٨٤٥هـ-١٤٤١م) تقى الدين أحمد بن على.
 - "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار" جزءان (بولاق سند ١٢٧٠هـ).
- ١٧ - ابن ممتى (٦٠٦هـ-١٢٠٩م) القاضى الوزير شرف الدين أبو المكارم الأسعد ابن أبى سعيد.
 - "كتاب قوانين الدواوين" (القاهرة سنة ١٢٩٩هـ) نشره الدكتور عزيز سورىال عطية (القاهرة ١٩٤٣).
- ١٨ - ابن منجب (٥٤٢هـ - ١١٤٧م) أمين الدين تاج الرياسة أبو القاسم على، ويسمى أيضاً الصيرفى المصرى.
 ١٩ - ناجى معروف.
 - "الشؤون الإدارية والحضارية" (بيروت ١٩٦٠م).
- ٢٠ - ابن هشام (٢١٨هـ - ٨٣٣م) أبو محمد عبد الملك بن هشام أيوب المعافى الحميرى.
 - "كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم" ٣ أجزاء (القاهرة سنة ١٣٣٢م).
- ٢١ - هلال الصابى (٤٤٨هـ - ١٠٥٦م) أبو الحسن بن المحسن بن أبى إسحاق إبراهيم الكاتب.
 - "تحفة أمراء تاريخ الوزراء" طبعة هـ . ف. امدروز، وذيله الناشر بفهرس ومذكرات.
 ٢٢ - أبو يعلى.
 - "أحكام أبى يعلى" (نشر الأستاذ محمد حامد الفقى) (القاهرة سنة ١٩٣٨م).
 - أبو يوسف (١٩٢هـ - ٨٠٧-٨٠٨م) يعقوب بن إبراهيم صاحب أبى حنيفة.
 - كتاب "الفقه على المذاهب الأربعة" (طبع دار الكتب المصرية ١٢٤٩هـ - ١٩٣١م).

الفهرس

صفحه	
٣	مقدمة التحقيق
١١	المؤلف (لسان الدين ابن الخطيب)
٢٨	الوزارة
٣٥	الوزارة عبر العصور الإسلامية
٤٥	نوعا الوزارة
٥٣	الوزارة فى الأندلس
٥٩	الإشارة إلى أدب الوزارة
٦٢	باب بيان قدر رتبة الوزارة فى الأقدار وبعض شروط الاختيار
٦٧	- الركن الأول
٧٠	- الركن الثانى
٧٤	- الركن الثالث
٧٦	- الركن الرابع
٧٩	- الركن الخامس
٨٤	- الركن السادس
٨٦	مقامة السياسة
٨٨	- الرعية
٨٩	- الوزير
٩٠	- الجند
٩١	- العمال
٩٢	- الولد
٩٣	- الخدم
٩٥	- الحرم
٩٥	- المال
٩٦	- الحاشية
١٠٠	- وصايا متفرقات
	مصادر الدراسة والتحقيق

obeikandi.com